أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

رواية

راجي بطحيش

يولا وأخواته

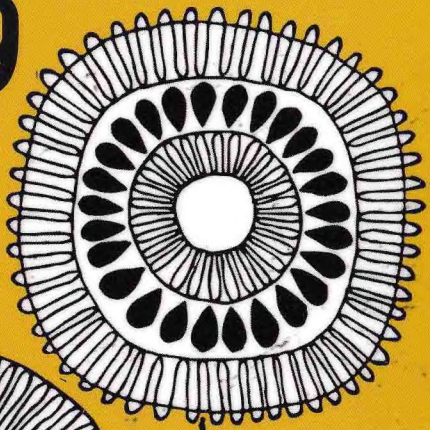

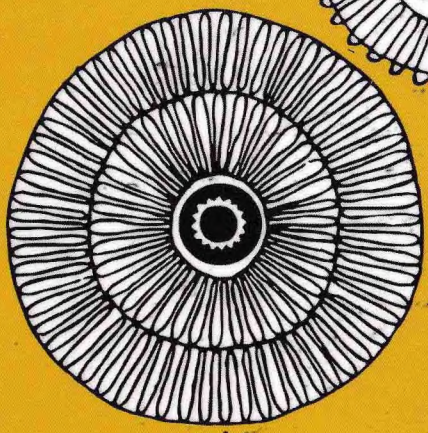

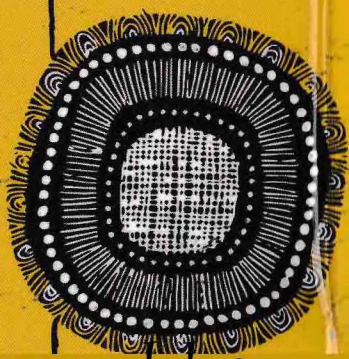

scanned by
jamal hatmal

أنظر إلى مائدة "إيكيا" المربّعة الصغيرة الحجم بإعجاب، تلك التي يمكنها أن تحوي قمامةَ العالم كلّها. ينبع إعجابي من كوني استطعتُ أن أشكّل من تفاصيل أيّامي المتتابعة وغير المتشابهة بليلها ونهارها، ثمّ نهارها وليلها: ليل – نهار – ليل - نهار - ليل - نهار، مُنشأة فنّيّة موحية. أ إلى هذه الدرجة تهافتت الأيّام بانسيابية متناهية، لترتطم بأقدام هذه المائدة التي صارت مرتعاً لكلّ ما لا مكان له في خزانة. لا خزانات في مربّع الوحدة ... كلّ حاجياتي في الخارج، أُعلّقها هنا وهنا وهناك، كما أنها تقع منّي على هذه السجادة، وتلك البلاطة العادية وهذه العتبة، ولكنني أنسى التقاطها من هنا وهنا وهناك.

ولاعة: هناك عدّة ولاعات: صفراء، خضراء، تعمل، عطبة، على شكل قنفد، على شكل امرأة صدرها عار. ولاعة واحدة فقط اشتريتُها، أما البقية، فقد أخذتُها من أناس، لا أعرف كيف أصنّفُهم ضمن أيّامي المندفعة نحو سيقان هذه المائدة، كما قلتُ. ولاعات الدنيا كلها لديّ. ولاعات الدنيا كلها وطني الذي لن أُفرّط فيه هذه المرّة على الأقلّ.

يولا
وأخواتها

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Yolla Wa Akhuateh *by* "Raji Bathish"
Arabic copyright © 2017 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: راجي بطحيش / عنوان الكتاب: يولا وأخواته
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
صورة المؤلف: بعدسة الشاعر نوري الجراح / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-94-6

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

راجي بطحيش

يولا وأخواته

Bibliothèque - Discothèque
COURONNES
66, Rue des Couronnes
75020 PARIS
Tél. 01 40 33 26 01 Fax 01 47 97 16 34

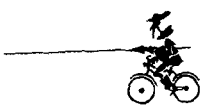

المتوسط

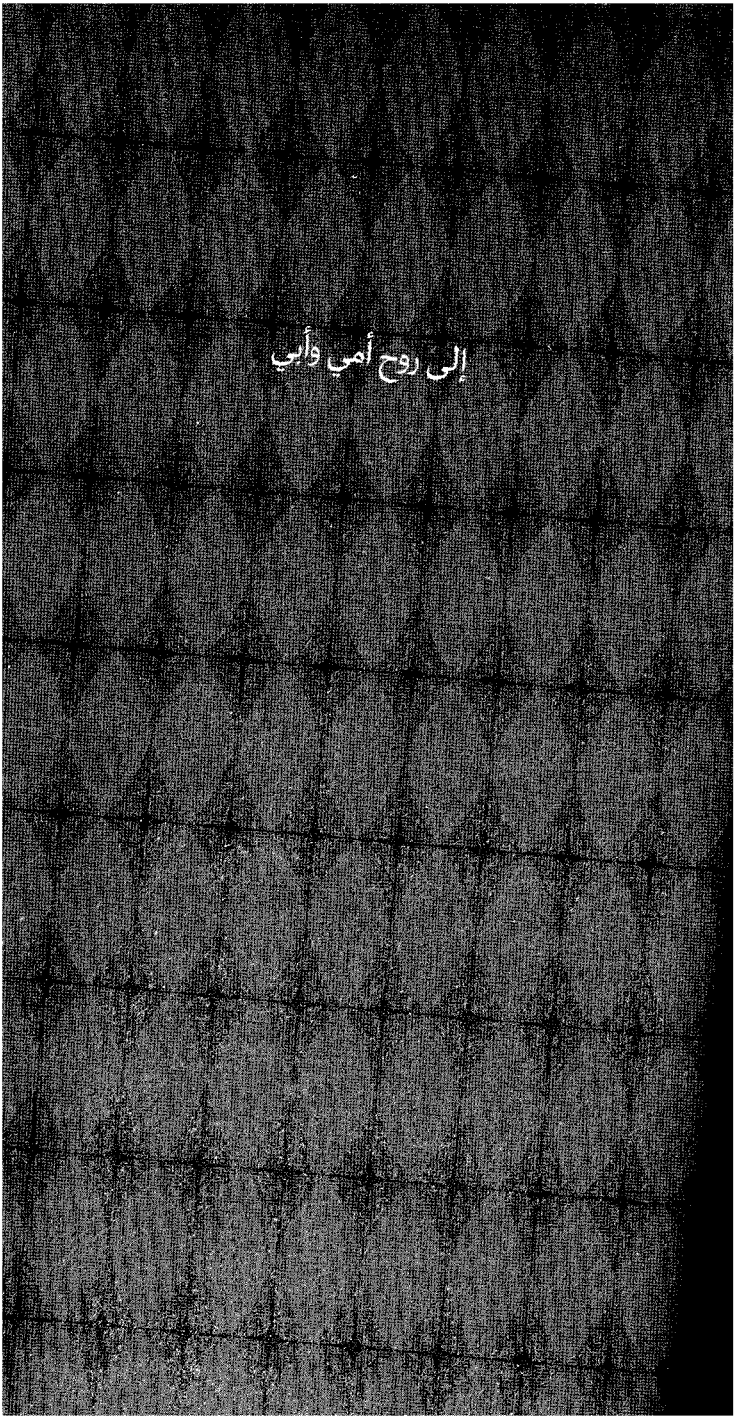

إلى روح أمي وأبي

١) في الناصرة ...
عندما يهبطُ الخريفُ على أهلها

-١-

في الناصرة ... يهبط الخريف على أهلها دون مراجع شِعْرية .. نصّيّة جاهزة ... تُذكَر .. حيث لا يتّكئ الخريف في هذه الحالة على بكائيّات لاجئين أو كلماتِ شاعرٍ، ترشحُ عذوبةً سريعةَ الامتصاص بالأرض ... في الناصرة التي لا يحبّها الشعراء كثيراً، يهبط الخريف رويداً رويداً، يكنس أغبرةَ القيظ الدنسة .. يطردُ الأرواحَ التي تحيكُ مكائدَ صغيرةً .. يطرد الخريف أيضاً العمّاتِ والخالاتِ اللواتي صفّفنَ شعورهنّ لتوِّهنّ من عند حلاقة الحيّ الهَرِمَة .. دون سبب ... تطرد ريحُ الخريف المحتدّة فجأةً آنساتِ الحي ومعذّباته، وهنّ يجلسنَ على شرفاتٍ حجرية متآكلة، ينتظرنَ المسيحَ وهو عائدٌ من عمله مترجلاً عبر "نزلة الكلاريسْ" ... لقد صفّفتنّ شعوركنّ عَبَثاً، ودون سبب، فها أنا قد جئتُ لأُبعثرَه - أقصدُ الشَّعرَ - وليس ذكرياتِ الحبّ المتخيَّل، كما يعتقد الجميع ... تقول ريح الخريف ...

-٢-

في الناصرة ... يهبط الخريف على أهلها .. دون أسرار لغوية شِعْرية خاصّة، أو رموز غامضة، كُتِبَتْ خلف صورة عائلة قديمة، رَحَلَ أفرادها جميعهم جسدياً وميتافيزيقياً تاركين وراءهم حكاياتٍ مفتعلةً، لوطن كامل، لم يُسعِفْه الغدرُ كي .. يكن ... في الناصرة التي لا يحبّها الشعراء كثيراً، يهبط الخريف على أهلها بعُنف نسبيّ ... أو اختياريّ .. فعندما تهمّ

ركوبَ سيّارتكَ نحو الخلّة، وبفعل تزاوج الفولاذ والطبيعة ... يجتاحُكَ الياسمينُ من كلّ جهة .. ذلك الياسمين الذي أصبح على استعدادٍ كاملٍ للتساقط على كل شيء، والذبول والموت ... تتماوج هضاب الياسمين يميناً ويساراً، ثمّ تأتي ريح شمالية فجائية، وتُحوِّلُ مسارَ قوافل الياسمين، وتنعفُها على الوجوه، لتُزركشَ فيها قميصَ يُوسُفَ ... لقد استحملتُ غباءَ الغبار هذا الصيف كلّه، وها قد جاء وقتي، كي أنتحرَ عبر التّجسّد ... وأن أخرجَ من اللوحة الساذجة والقصيدة المكرّرة ... تقول ياسمينةٌ لم يبقَ لديها ما تخسرُهُ ...

-٣-

في الناصرة ... يهبط الخريف على أهلها .. دون أهازيجَ شعبيةٍ متوقّعةٍ سلفاً، فلم يبذلْ جموع المهزومين ذاك الجهدَ الكبيرَ لصياغة قواميس، تُستخدَم تلقائياً لوصف خريفِها الضائعِ المسروق ... في الناصرة التي لا يستسيغها الشعراء والرجال الناعمون كثيراً، يهبط الخريف على أهلها وهم خجلون ... ففي فناء كلّ بيت في الميدان وديانا وتلّة الرجفة زيتونةٌ واحدةٌ فقط، وأحياناً زيتونتان ... تتساقط معظم ثمارها قبل اكتشاف / تذكّر وجودها ... تنزل العائلةُ بضعَ درجات، لتقطفَ ما تبقّى من زيتون، والتقاط بعض الصور قرب الشجرة، وتحويش بعض الثمار غير الناضجة من الأرض، تكفي كي تُخلَّل في زجاجَتَي "كولا" ونصف ... لا يتذوّق منها أحدٌ شيئاً ... إن كنتُم لا تفقهون شيئاً عن آداب الزيتون وروحه ... وإن كنتُم تشترون مخزونَكُم من الزيت أصلاً من الريف المحيط، أو أبعد ... فلماذا تزرعونني وسط هذا الإسمنت، وتُبقونني وحيدةً أنتظر؟ ... تقول شجرة زيتون جريحة، أُصيبَتْ بالصّمّ (جرّاء أصوات الصراخ والعويل التي لا تتوقّف والقادمة من المحيط).

-٤-

في الناصرة ... يهبط الخريف على أهلها .. دون حاجة لقراءة حكاية غياب ملتزمة بالخسارة ... مرّة أخرى ... واستخراج مصطلحات وعبارات جاهزة منها، ونثرها طولاً وعرضاً على عتبة بيت، فَقَدَ سكّانُه ذاكرتَهم إثر ثروةٍ، هَبَطَتْ عليهم فجأةً .. سرّاً ... في الناصرة التي لا يُفضِّلها فنّانو المسرح كثيراً .. يهبط الخريف على الأمّهات رويداً رويداً (لا زلنَ يصفّفنَ شعورهنّ كلّ سبت عند حلاقة الحيّ، ويصطحبنَ معهنّ حكاياتٍ غريبةً جنسيةً مثلاً تحدث في البلد) ... نذهب أنا وأمّي لشراء ملْح ... نُجهّز أنفسَنَا بعناية شديدة، ونتأنّق بشَغَف غير مفهوم، نحتار إن كنّا سنختار "نزلة الكلاريس" أم نزلة "دار آمنة" ... نذهب لشراء كيس ملْح مخترقين الشارع الرئيس مروراً بي وبظلّي، وأنا عائدٌ سيراً على الأقدام من المدرسة المعمدانية إلى تدريب " الرقص الشعبي والحديث" في المركز الثقافي البلدي ... نقول الجملة نفسها دائماً عندما نمرّ قرب المحمّص الذي كان يُفضِّله أبي، ثمّ نتجاوزُ بيتَ الصداقة ... انظرْ، سيدي أبو الياس يجلس وراء النافذة، يراقب الشارعَ ... تقول أمّي ...

-٥-

في الناصرة ... يهبط الخريف على أهلها ... ويُبقيهم جالسين من وراء نوافذهم الصغيرة، يترقّبون زائرين تائهين، عبروا خطأ، ذات مساء أحدٍ قصيرٍ، فإبريقُ الشاي المعطّر جاهز، وكذلك كَعكَةُ البرتقال وجوزُ الهند المربّعة الشكل الهندسيّ، والتي هي ليست لذيذةً حتماً، بقدر ما هي خريفية ربّما ... في الناصرة ... التي لا يحبّها باحثو الموروث الشعبي المَرجوّ ... أذهب لزيارة جدّتي "ماري" حيث تتوارى عمّتي المسكونة بالجان وأصوات الراحلين، خلف النافذة .. أصعد ذلك الدرج العريض

الممتد من سور "الكلاريس" إلى سور "المستشفى الفرنسي" أنا وكل ما جمعتُهُ وتراكمَ عند حافّة جفوني من ... من ... معرفة مفرطة .. لنقل أو صخب تراكمي .. ربّما .. أجلس في الشرفة المعلّقة فوق هدير ريح الزمن الخريفية التي تكنسُ شعري الأبيض نحو فناء "درج دار منصور" ... أشاهد على الحائط أمامي التجاعيد المتشكّلة على وجوه أولئك الذين غادروا هذا البيت الكبير، وظنّوا أنهم تركوني أحرسه، هو وغرفة الشحبار(الأنبوب) والقطط وصور الموتى ورائحة ملابس جدّتي .. لم يبقَ لكَ مكان تفرّ إليه، فإنكَ مجبولٌ بهذا التراب الشحيح .. وستموتُ في مكان ما، وسيتمدّد جسدكَ الخاطئُ الدّنسُ هنا بين هذَيْن السُّوْرَيْن، وعلى جانبكَ صفائح زنبق أبيض ... تقول يمامة تأتي إلى هنا أو هناك كل مساء أحد ..

٢) مزاد عَلَني

نجلس أنا وأمّي قبالة بعض كالأمراء، لنعقد حفلة شاي .. لا شاي فيها .. بل فناجين قهوة صغيرة، تستغرق دهراً حتّى تصلَ شَفَتَيْها، حيث تكون القهوة قد اندلق جُلُّها على المائدة البيضاوية البلاستكية الرخيصة (والتي كنتُ قد غطّيتُها بستار شامي، اشتراه أبي من عمّان قبل ثلاثين عاماً، كي لا أشعرَ أنا، للحظةٍ، بحجم السقوط) .. يقولون: دَلْقُ القهوة خيرٌ .. وأنا أقولها .. إلا على أبناء الذوات والعائلات المحترمة التي ترضعُ أصول العيش مع حليب المربّيات، فَدَلْقُ القهوة شرّ، ومصائب لا تنتهي بعده مباشرة، وكوارث لا تنفكّ عن مفاجأتكَ .. لا لشيءٍ إلا لكي تُثبتَ لكَ أو لتُظهرَ لكَ كيف يبدو موكب الخسارات بالفعل، وكم أنكَ تعيش في عصر مُنهَكٍ بأفوله ..

تأتي مساعدة والدتي الآسيوية بعد أن تكونَ قد استنشقتْ وحدها عطر القهوة المنسكب، تُتَمْتِمُ بضعَ كلمات، تمسح القهوةَ المنسكبةَ عن الستار الدمشقي، وكأنه مسطحٌ أملسُ، يمكن تنظيفه، تُوجِّه لي نظرة عتب ممزوجة باحتقار، والقليل من المحبّة أو الشفقة ربمّا، ثمّ تذهب مسكونةً بشعور دائم، بأنها ضحيةُ شيء ما (هي لا تعرف أن تلك البقعة الداكنة قد لا تزول عن قطعة القماش المركّبة والفسيفسائية هذه، وصمة قهوة قد أسمّيها، ستتوارثها الأجيال المنقرضة، أو مخلوقات الجَرَب).

أحبّ شكل أمّي الآن أكثر وهي نحيفة بوجه دقيق التفاصيل، نَحَتَهُ

المرضُ والوَجَعُ، فعندما كانت مكتنزة الوجه والعنق والصدر لم يستهوني شكلُها، كانت وكأنها ترتدي قناعاً مزيّفاً من الصرامة، وحتّى البلطجة والفظاظة أحياناً، هي الآن تشبه صوفيا لورين في عزّ شبابها، وخاصّة في فترتها الذهبية خلال مرحلة سينما الواقعية الجديدة في إيطاليا ... إنه أمرٌ عَصيٌّ على التفسير .. ولكن أنوثة وهشاشة أمّي الآن، مستحيلة .. مستحيلةٌ، ولا يمكن قياسها كمّيّاً.

تبتسم أمّي لي معظم الوقت، أو طيلته، هي بالكاد تردّد ثلاث كلمات يومياً، وخمسة كلمات، في حال أرادت ارتكابَ خطيئة إحصائية فظيعة، ولكنها تبتسم .. ابتسامتها ساحرة للغاية، تضع الماكياج كاملاً، وطلاء الأظافر الفاقع، كما تغطّي صبغة شعرها النواحي والأطراف كافّة دون هفوات تُذكَر، كَملكَات الجمال والفتنة اللواتي يتجمّلنَ حتّى آخر نَفَس، كما أنها لا تزال تتقلّد خواتم زواجها قبل قرن، وهي كلّما أرادت الهروب من نظراتنا أو تساؤلاتنا، تنظر إلى خواتمها هذه عبر شَدّ كفّة يدها على مستوى نَظَرها (أعتقد أنني أيضاً أقوم بهذه الحركة أحياناً، وبدون شعور، كما أنني أمدّ خنصري باتّجاه مضادّ لبقية الأصابع عندما أمسك فنجاناً مثلاً أو ملعقة .. مثل أمّي) ... تتأمّل أمّي شيئاً ما عميقاً داخل عينَيّ، ولا تتأمّلني أنا، إذ إنها لا تراني بحقّ، بدليل أنها سألتْني فجأةً:

- أين كميل؟ (وتلك كانت نسبة مئوية عظيمة من الكلمات التي كانت سوف تنطق بها يومها).

- أنا هنا، أجلس أمامكِ.

- أعرف ذلك! ماذا تعتقدُني؟! (لقد حطّمْنا الرَّقْم القياسي بعدد الكلمات المنطوقة).

- ماما، حبيبتي، اسمعيني جيّداً، لم يتبقّ أحد، بقيتُ أنا وأنت فقط وسط كلّ هذا الخواء

(تنظر إليّ باستنكار، وكأنني صعقتُها بموجز أخبار صادم).

عنجد يعني ... بابا مات، وجانيت في كندا ولا تسأل – أوك حتّى بعد أن هَرَبَ زوجُهَا مع جارتهم الإيرانية - ومي انتحرتْ، كما تعرفين، وسوسن في دار الرعاية النَّفْسية، وأميل مات من الإيدز، وأنا مُولعٌ بسائقي الشاحنات ومُرمّمي البيوت من الفحول، الذين لا أجد عادة ما أتحدّث معهم به، ولم أحاولْ أصلاً، لذا لا عائلة لي .. لا أحدَ ... حان الوقت كي أتصرّف بكلّ هذه الأملاك المتكلّسة التي باتتْ تئنّ من طبقات الغبار الذي تكتسيها، أريدكِ أن تُوقّعي هنا .. بالضبط هنا .. طيّب .. حبيبتي.

يمكننا التّصرّف بهذه التحف كلّها في المزاد العَلَني، وذلك البيانو على الرغم من كل ذكرياتي معه وطَقْم الجلوس القيصري هذا، وعشرات الدكاكين ومصنع الزجاج الذي أصبح مرآب سيارات، ومصنع التبغ الذي تحوّل لملتقى عشّاق عابرين، يرشقون جدرانه بمَنِيّهم، ويرحلون، حان الوقت، كي نعيش قليلاً. ثمّ ماذا عن مجوهراتك؟ .. تلك السعادة التي لم نتذوّقها، لورد التي لم تزوريها، سويسرا التي لم تعيشي فيها، مقهى "فوكيت" في شانزليزيه الذي لم أجلسْ فيه معكَ، أو بدونك، و/أو برفقة الكلب الإفرنجي الذي يتغوّط ورداً، والذي لم نملكه يوماً، الشّقّة في تلّ أبيب التي لم أشترها، أعرف أنكِ لم تزوري تلّ أبيب الا لاستصدار تأشيرة دخول لأميركا .. وطن الرعاع ... ثمّ بيروت التي لم تزوريها بعد، لبنان بلدكِ، هل نسيتيهِ؟ ألم نردّد طويلاً ونحن أطفال:"ردّني إلى بلادي" ..

أمدّ الورقة تجاه أمّي ومعها قَلَمَان، لا أعرف لماذا قَلَمَيْن، يبدو أنني

ارتكبتُ خطأ تكتيكياً فادحاً آخر، فهي تُمسكُ القَلَمَيْن، وتُجري مقارنة منهجية بينهما، مهملةً الورقة ومكان التوقيع ..

يلا ماما، اكتبي اسمك هنا ... عايدة ..

أسحب القلم الأقلّ جاذبية بسرعة، تتأمّل أمّي باستنكار، ثمّ بتسليم بالأمر الواقع، القَلَمَ المتبقّي، تُثبت رأسه على الورقة حتّى تكادَ أن تثقبَها، ثمّ تكتب بسرعة مذهلة، وبالعبرية التي لم تُتقِنْها، ولم تكنْ من المعجبات بها يوماً ...

"سوسن"

٣) دمية شقراء وهندسة

يقف بجانبي رجلٌ مُلتحٍ، يُمسكُ بين يَدَيْه مقشرةَ بطاطا، يهمّ بسداد ثمنها مخرجاً بطاقة العضوية من محفظته المهترئة - هذه ليست محاولة وصف تهكّمية، لقد قَطَعَ هذا الرجل كل هذه المسافة، ليشتري مقشرةَ بطاطا من المتجر الكبير التي تتعامد رفوفه كجدران، تفصل بين طائفَتَيْن متحاربَتَيْن، أو بين عنصر وعنصر أدنى ... يتعلّق ذلك بزاوية نَظَرِنا، أقف وراءه في طابور الخبز البلاستيكي هذا، وحالي ليس بأحسن منه .. فأنا أمسك سكّيناً واحدة ... قَطَعْتُ كل هذه المسافة لأشتري سكّيناً بسبعة شواقل ... يميل الرجل الملتحي إلى الوراء، ويكاد يسقط، يسقط عليّ، ينظر خلفه بحركة شبه دائرية ...

آسف

يا إلهي، إنه الأخصائي النَّفْسي الذي جَلَسَ معي على انفراد في جيل ١٢ سنة إثر أزمة عَصَفَتْ بعائلتنا الصغيرة والهشّة، وسألَني وقتَها إن كان شيءٌ ما يضايقني، يريد أن أحدّثَه بصراحة عنه ... ففكّرتُ قليلاً حينها، وقلتُ له: ... نعم، الهندسة ... الهندسة تُضايقُني، ولا أفهمها ... دَفَعَ الأخصائيّ النَّفْسي ثمن مقشرة البطاطا، تناول كيساً أكبر بكثير من الحاجة، عند إذ أمسكتُ بسكّيني، وهممتُ بمناداته، ولكنه أفلتَ منّي ... ابتلعتْه صفوفُ السّيّارات الواقفة بترتيب شديد ... منهك ... رمادي جداً .. لا طعمَ له، ورائحته رائحة مكان مَنسي .. حزينٌ .. تركتْه الذكرياتُ

وحيداً مغبّراً بالأشياء والحبيبات الدقيقة المفترسة ... وها هي صفوف السّيّارات المتراصّة تدوسُ الرجلَ الملتحيَ تحت أقدامها .. أقدام العَدَم .. هو ومقشرة البطاطا وبنطاله الذي يكاد يتساقط منه قطعاً قطعاً .. وكأنها تسحبه بين صهريجَيْن، وتُحوِّله إلى رقاق، أو أشبه بسجّادة عجمية أصيلة المكوّنات ..

عند إذ أمسكتُ بسكّيني، وهممتُ بمناداته ... لو سمحتَ، لقد كذبتُ عليكَ عندما قلتُ لك إن جُلّ ما يضايقني هو الهندسة ... وها أنا أقفُ أمامَكَ الآن بعد ثلاثين عاماً، أشتقّ سَرْدِيّة تماسٍّ مع السينما الميلودرامية المصرية .. بعد ثلاثين عاماً، وأنا بمظهر، لا بأس به ... القليل من الشعر الأبيض والهالات السوداء تحت العيون، أنت الذي تبدو هارباً من أدغال، تعجّ بمخلوقات الغوريلا المغرَمَة بمطاردة البشر .. وفقط البشر .. آسف، لقد كذبتُ عليكَ .. لم تكن الهندسة وحدها ما يُزعجني في هذا العالم الذي لا يُبشّر بخير وقتها، بل أمور كثيرة كانت تُؤرّقني حينذاك، وخاصّة أن كل موضوع الهندسة هذا في الصّفّ السابع هو وَهْم، لأن الهندسة في الجامعات شيء، وفي الصّفّ السابع شيء آخر أشبه بقياس الأشكال والنسب داخلها .. وفي صفوف متقدّمة، يصبح اسمه علم "المثلّثات" و"التفاضل والتكامل"... أمور كثيرة، هل لو كنتُ قد أخبرتُكَ بها، وعَدَدْتُها، لكانت حياتي مختلفة، ولم أكنْ لأقفَ خلفكَ في هذا الحانوت المدجّج بالبرودة ...كما أنني اكتشفتُ بعدها، واقتنعتُ كُلّيّاً بأنني لا أؤمن بالتحليل النَّفْسي، لا الفرويدي ولا اللاكاني، بل أؤمن بالكيمياء .. كنتُ أكره الهندسة، ولكني أُولعتُ بالكيمياء بعد اكتشافي لها، وصرتُ أحفظ معادلات التفاعلات عن ظهر قلب، وبعدها في الجامعة ... سواء الكيمياء غير العضوية، أو العضوية ... أو حتّى التحليلية، ومن هنا، جاء حبّي للأدوية، وقدرتها على العمل على كهرباء الدماغ وكيمياه

أكثر من التحليل النَّفْسي، والسلام مع الذات، وعناق الأشجار، ومناكحة القرع البلدي .. وكل هذا الخراء .. لديّ شعور أنني لو كنتُ قد صارحتُك بالحقيقة وقتها، لكنتُ سأجد نفسي مرّة أخرى في الحانوت ذاته، أقف عند الصندوق نفسه، ربّما أشتري القطعة نفسها، ولكنني كنتُ سأزنُ وقتها ٥ أضعاف ممّا أنا عليه الآن، وكان سينقصني سِحْرُ الدَّنَس الذي تسمّونه هالاتٍ سوداءَ تحت العيون ..

أعرف أنني لا أؤمن بالتحليل، وأنني رغبتُ بايقاف الشبح الملتحي في الحانوت لدوافع دراماتيكية متجذّرة عميقاً عميقاً. لقد كذبتُ عليه وقتها، وبخُبث المراهقين الجدد، ولكنني أحاول أن أجيبَ على سؤاله مرّة أخرى بعد ثلاثين عاماً ... ما الذي كان يضايقني وقتها؟ أننا كنّا ننتظر شجرة اللوز بفارغ الصبر حتّى تُثمرَ، كي نلتهمَ ثمارها الحامضةَ والمقرمشةَ على مهل مع الملْح، بينما يأتي الغزاة، ويقضون على ما في الشجرة في ليلة واحدة، ونحن نيامٌ؟. إنني كنتُ مضطراً أن أستقلّ الباص من المدرسة للشارع العمومي في حَيِّنا، وأتسلّق الجبلَ كل يوم، لأن شركة الباصات رَفَضَتْ تسيير خطٍّ، يلجُ حَيِّنا؟ إنهم كانوا يفصلون بين الأولاد والبنات في الحصّة الأخيرة، فكان الأولاد يمارسون الرياضةَ والبناتُ الخياطةَ والتطريزَ، كي تصبحنَ زوجاتٍ مسيحياتٍ صالحاتٍ كإليصابات، وأنني كنتُ أحلم أن أكونَ في درس الخياطة .. حيث الأمانُ أكثر خصوبة؟ أنني كنتُ ألعب بدميتي الشقراء (كانت أصلاً دمية لعمّتي التي سَكَنَهَا الجنّ، فَرَمَتْهَا في خزانة الأشياء القابلة للسرقة) ولكني كنتُ أخجل أن أنزّهها في الخارج، كي لا تصفعني نظرة قَرَفٍ؟ وأنني كنتُ أشعر، أن أمّي تبتعد أكثر وأكثر، كلّما كان الصراخ في الثلاجة المجاورة أعلى وأعلى!

٤) يولا

"ستصبح بعد عشرين عاماً وحيداً كالمجذومين، تتجوّل في شوارع بلدتكَ المهجورة، تبحثُ عن أير معفّن تمصّه .. أيّ أير، ذلك كله عَبَثٌ، ففي تعابير يختلط فيها القرف والشفقة .. لن يرضى أحدٌ الاقتراب منكَ، حتّى التّبوّل عليكَ".

هذا ما قالَه سمير عشيق أميل الأوّل في مساكن الطَّلَبَة في معهد الهندسة التطبيقية –التخنيون في حيفا، بعد أن قال له أميل في خضام شجار عنيف وطويل ..

"لا تنسَ أنكَ بنهاية الأمر فلاح، نعم، فلاح .. رائحة جسمكَ وَحُلٌ وتِبنٌ، أشكرْ ربّكَ أنني أوافقُ النومَ معكَ أصلاً، محاولاتُكَ كلها لتبدو مَدَنياً فاشلة ومُزيّفة حتّى كلمة ماما التي تنادي بها أمّكَ أو تذكرُها بها تبدو كالشتيمة، أو النكتة البايخة وسط نظرات النزلاء الساخرة والمستهزئة، وخاصّة بشير ومأمون أبناء قريتكَ أو بلدكَ .. لا أعرف ماذا تسمّون هذا الشيء!".

وكأن دعاوى سمير والسيناريو الذي رَسَمَهُ انتقاماً على شتيمة "فلاح" سترافق أميل طيلة حياته، وسوف تُنافس لعنة سوسن التي حلّتْ بالعائلة جمعاء، وكأن أميل سيسير منتصب القامة، وبإصرار لا غبار عليه نحو تلك النهاية .. نحو تحقيق ما تمنّاه له سمير من مصير بائس، أو ربّما قد لا يكون بائساً .. فقد يكون مثيراً، وذلك يتعلّق بالزاوية التي ينظر المرء منها، وما الذي يُعدّ مثيراً بالنسبة له، وما الذي يعدّ تعيساً وباهتاً.

ثمّ منذ متى تُعدّ كلمة "فلاح" شتيمة؟! ما هي اللحظة التاريخية التي حملتْ هذه الكلمة كلّ هذه الحمولة المريبة؟ ثمّ إن رائحة جسم سمير لم تكن تبناً أو تراباً عميقاً، بل كانت خليطاً من أمور غير محسوسة أخرى، ولكنها بالتأكيد مثيرة للحيرة ... رائحة تحمل عوالم جديدة ... كما أن بشرتَهُ الداكنة ملساءَ بدون شَعْر، باستثناء شَعْر العانة، والقليل منه عند منطقة الصدر، لا ينبتُ الشعر الكثيف في منطقة الظهر والمؤخّرة خلافاً للرجال المسيحيين في الشمال، وكأن أميل كان قد نام معهم جميعاً وهم عراة، لكنْ، لا شك أن في جسم سمير وعينَيْه السوداوَيْن الداكنَتَيْن الوحشيَتَيْن كان هنالك ما يطرح الرغبة بالمزيد والمزيد، وقد كان ذلك عبارة عن مزيج من الوعي الإكزوتيكي العميق والمتأصّل من جيل إلى جيل، ومن الاعتقاد أو ربمّا الوَهْم من أن سميراً هذا يحمل أسراراً عديدة ستنكشف كل مرّة من جديد، كلّما تمّ إطفاء الأنوار في مسكن طَلَبَة ٦/٢٥ في حيّ كندا، أو في مسكن ٣/٢٥ من الحيّ نفسه.

عام ١٩٩٢، كانت تلك المرّة الأولى التي يهطل فيها الثلج على ارتفاع منخفض نسبياً من جبل الكرمل، وتحديداً على "نافيه شئنان" الذي كانت تسمّيه الجدّات والطنطات بإصرار وعند "النبي شعنان"، وهو نبيّ لم يتواجد أصلاً، لا ضمن الموروث المَحكي، ولا ضمن الكُتُب السماوية والدنيوية، فقد وُلد النبي شعنان عندما قرّرت الصهيونية إطلاقَ تسمية "نافيه شئنان" على سفح الكرمل هذا . كان الثلج يتساقط بهدوء شديد بفراغات هندسية دقيقة، وكان يبدو لشدّة الضوء المنبعث من الأرض أشبه بالنجوم التي سئمت العتمة والظلمة، وقرّرت الانتحار بعذوبة وأناقة، تليق بالحَدَث، عندها قرّر التلفزيون الأردني وكعادته في العواصف الثلجية عرض برامج ترفيهية جديدة، ولم يسبقْ عرضها من قبل ...وهكذا كانت النجوم تنتحر خارجاً، والعرض الأوّل لفيلم "الراعي والنساء" من بطولة سعاد

حسني بعد غيابها عن السينما، والإشاعات حول صحّتها واكتئابها، حيث كان شكلها بالفعل صادماً لأوّل وهلة، وخاصّة بشاشة الأبيض والأسود، وصعوبة التقاط البثّ في تلك الأيّام دون هوائي محترم، لكن الأمر لم يكنْ كذلك على السرير الطلابي الضّيّق الملاصق للحائط الملاصق لغرفة الطالب الآخر.

كان ثلج النبي شعنان يفصلُ بين عالَمَيْن، أو فلنقلْ بين مرحَلَتَيْن .. تلك الما - قبل، والتي كان من المستحيل أن يتخيّل أميل أو يفكّر أن شَفَتَي سمير المكتنزَتَيْن والكاسحَتَيْن من الممكن أن تلامسا شَفَتَيْه اللتَيْن كانتا قد تربّيتا بطريقة غير مباشرة على أنهما ناعمتان وضئيلتان وهشّتان .. والأكثر من ذلك ... طاهرتان ومَحميَّتان، أما المرحلة الثانية، فقد كانت بطبيعة الحال مرحلة الما - بعد، والتي أصبحت شَفَتا سمير فيها مرتعاً للَّذّة .. مرتعاً تتصاعد فيه الرغبة بدالّة خطّيّة، كلّما لطّخ الدَّنَس شَفَتَي أميل، وكلّما امتزج اللّعابان أكثر وأكثر، ليصبحا واحداً جديداً، يخلق محيطاً ثالثاً من اللعاب الهجين، محيطاً لا يمكن الفرار منه، أو العودة من حيث أتيتَ، عليكَ المضي فيه قُدُماً نحو الأمام حتّى من دون وجود أسهم تشير للاتجاه، وقد تغرق في يَمّ اللُّعاب هذا، وعلى الأرجح أنكَ ستغرق ...

بعدها كان هنالك شيء مفضوح ما في تصرّفات سمير تجاه أميل في محيط طلاب الشّقّة في مساكن الطَّلَبَة، وكذلك أصدقائهم، ما كشف علاقتهما بسرعة، وما جعل الجميع يتواطؤون مع قصة الحبّ المِثْلِيّة الجديدة، والتي اخترقت حيّز المَلَل والتجانس الظاهري، على الأقلّ الذي ميّز أجواء الطلاب الريفيّين في تلك المساكن، وخاصّة مع الغياب شبه التّامّ للفتيات عن ذلك الحيّز التعليمي والمَعيشي الجديد والمُتطلّب ... كان التواطؤ صامتاً، وقد بدا حينها أن الجميع يستمتعون به، وخاصّة

سمير الذي نَجَحَ في إيقاع هذا الفتي النصراوي الدّلّوع الذي يحادث أمّه نصف الكلام بالهاتف العمومي بالفرنسية، ذلك الفتى الذي كان على حافة كل شيء .. على حافة الجمال .. على حافة الذكاء .. على حافة النحافة المرضية ... على حافة التّفكّك .. على حافة الهروب .. على حافة الجنون ...

كان الجميع متواطئون مع المتعة الإيروتيكية التي خَلَقَهَا انبعاثُ هذا الزوج، وذلك التّوتّر الاستيتيكي بين ما يمثّلانه سوية عبر ذلك الفرق بينهما، وكلّ على حدة عبر حبذ سمير الطاهر لأميل، واستعداده عدم إخفاء أيّ شيء من هذه اللهفة، وذلك الحبّ أمام أيّ كان مقابل ذلك الدَّلَع الشّرّير لأميل، والذي لا يشبه شيئاً سبقه ... وهكذا تحوّل أميل بفعل حُبّ سمير الخالص له، من مجرّد شخص معزول ومنطوٍ، ولا يتحادث سوى مع أبناء مدينته إلى دمية الشّقّة المُدلّلة التي استطاعت اختراق النواة الصلبة للوجود الريفي الإسلامي لمساكن الطَّلَبَة، وخاصّة أنه لم يكنْ استغرابه بحركات طريفة وكيدية استغرابه من الطريقة التي يلتهم فيها حسين زميله في الشّقّة دجاجة كاملة خلال دقائق، وبطريقة غاية في الغرائزية ..

ففين حين كان سمير يتفنّن في سُبُل عطائه، وإلغاء ذاته للحفاظ على هذا الحُبّ، وعدم إضاعة أميل من يَدَيْه، كان أميل يفكّر بأنه يريد أن ينامَ مع المزيد، والمزيد من أصدقاء سمير .. أمثال نضال الذي يملكُ جسداً أكثر فتاوة وامتلاء في ذات الوقت من سمير ومع بشير ومع نبيل ومع موسى ومع رزق ... فتحت شَفَتا سمير الماجنتان اللتأن لا تشبهان أبواب الخيانة من أوّل لحظة .. منذ لحظة تساقط الثلج لأوّل مرّة على سفوح الكرمل المنخفضة بعد عشرات وربّما مئات السنين، ومذ ظهرت سعاد حسني بوجه شبحيّ باهت، ليضع حداً للحُبّ ...

عندما كان أميل يحدّث أمّه بالهاتف العمومي بفرنسية مشوّهة، لم يكونا يتّفقان على موعد إجازة التزلج على الجليد في سويسرا أو الشوبينج في لندن، كما كان يعتقد غالباً جميع نزلاء الشّقّة .. بل كانا يُنصتان معاً لصراخ سوسن بصمت، ليفكّر هو في أثناء ذلك بجسد نضال المشتهى .. يخترقه بعنف قذر.

٥) تلك الروائح

-١-

نجلس أنا وأمّي في العربة ...

نستقلّها إلى المشفى أو إلى المصحّ أو إلى حيث يتجمّد الزمان، ثمّ ينام طويلاً، ويستيقظ فجأةً ليُقهقه ... هذا ما تَرَكَهُ لي جدّ جدّ جدّي المتحدّر من جبل لبنان، ذلك الطرف الذي يلامس البحرَ، ولا يشرب سوى خديعة شكله، وهول رطوبته ... ها نحن قد ارتدَيْنا أجمل ملابسنا الأوروبية (في حالتي) والأمريكية (في حالة أمّي)، أما أنا، فقد تعطّرتُ لأوّل مرّة بعطر فرنسي جميل، تلقّيتُه هدية من أغلى ما لا أملكُ – لا أحد يصدّق أنني أكره العطور الفرنسية، وأفضّل الإيطالية - أما أمّي، فقد ارتدت هي أيضاً أجمل ما لديها ... أجمل ما أحضرت معها من الشام قبل مئات السنين .. تلك الحاجيات وشتلة الياسمين التي تمتدُ وتمتدُ وتكاد تبتلع لنا "أرض الديار" حتّى بحرة الماء التي تنتظر جدّتي في وسط الدار، كي تعود من الموت، لتسقيها ... اغتالها الياسمين .. تتعطّر أمي بخلاصة الياسمين من قارورة نحاسية، تناقلتْها البناتُ، ولا ينتهي السائلُ الشّفّافُ الذي بداخلها، كما أنه لا يتعكّر أو يكتسب شكلاً غمائمياً .. نخمد أنا وأمّي حرائق الحَرّ المُهلِك في غابة ما تبقّى لنا .. فتمتصّ ملابسنا الأنيقة وملامحنا المتوسّلة إلى تصنيف .. كل الرماد ومخلّفاته وكل ما لم يحترق من جزيئات عصية .. نخمدُ الحرائق، ونتّشح بسوادها .. ها نحن نكتسب أخيراً تصنيفاً ما

... فكل شيء له ثمن، كما يقول الكليشيه الممجوج والمبتذَل ... وثمن اكتساب ملامح متناغمة مع المحيط، هو الغوص في مستنقع لا تذوب حرائقه، ولا تفنى ..

نجلس أنا وأمّي في العربة ...

وتسأل نفسها، أو تسألني .. في النقطة نفسها التي أتوقّع أن تفعلَ هذا.

أووووف ... ما هذه الروائح الكريهة؟

-٢-

ما هذه الروائح الكريهة؟

هل تسألينني أنا؟ أم تسألين نفسكِ؟ وفي حال كنتِ تسألينني أنا بصفتي أباكِ الجديد الذي يعرف كافّة الإجابات والتفسيرات لكلّ الأسئلة والمعضلات ودوافع الشّرّ والشرذمة والقَتْل والقَهْر والبؤس والشقاء و.. و.. كيف أقولها كي لا أبدو كالمولولات في الأفلام المصرية .. عدم تقسيم السعادة بشكل متوازن .. بمعنى نزع كل شيء من شخص، وإلقائه وحيداً في مكان كذلك الذي نحن في طريقنا إليه الآن .. هل تفهمين من أين تنبع أو تنبثق أو تتموسق تلك الروائح الغريبة التي هي خليط من أعشاب محروقة وجثث متحلّلة بسرعة مذهلة؟ ... هل تريدنني أن أجيبكِ بطريقتي؟ بطريقة الأب المستحدث .. فإن كنتِ تسألينني، فهذا يعني أنكِ تتقبّلين كلّ شيء فيَّ وعنّي .. تتقبّلينني، وهذا خيارك .. وإلا فلا تسألينني، ولنمضيَ معاً صامتين في طريقنا، لننبشَ في أكوام ما أبقاه لنا أبونا الحقيقي من تركة نتنة .. إنها رائحة هذه الكلاب السائبة التي ماتت عطشاً في هذه الجهنم، وتركت أجسادها مُلقاةً على الأرصفة، منفوخة، وتنتفخ كل يوم أكثر وأكثر، كلّما مررت قربها..لا ترحم الشمس أبدانها، تنهال عليها من دون حساب،

تنخر في جلدها، وتكون ثقباً في أسفل البطن يتّسع ويتّسع ويتّسع، كلّما مررت من هنا، ويفرز دماءً متخثّرة، وعصاراتِ أحشاء، ومكوّنات أكثر وأكثر ممّا أعرف ... وإنها رائحة العَرَق البشري المتراكم فوق أتربة الحيرة، أنهار من العَرَق تتدفّق الآن من وراء الحدود نحو حقول القشّ الميتة التي حولنا .. أعرف أنكِ قد تقولين لي إن ثمّة مزيلات للعَرَق (ديودورانت)، وأن النساء غير مجبرات على ارتداء الأسود في هذا الحَرّ الفظيع .. وأنه في أيّامكم لم يكنْ هنالك حجاب .. وأنكِ تشعرين بأن هذا ليس زمنكِ/زمننا، وأن شيئاً ما قام بخيانتكِ .. ولكن هذه الرائحة قد تكون لأشخاص قُتلوا، وتمّ إخفاء جثثهم في الآبار .. ولم يلحظْ أحدٌ غيابهم ... تلاشوا هكذا، وبقيتْ رائحتُهُم .. إنها الرائحة الكريهة لبلادنا .. وبلاد الآخرين ..

-٣-

نمرّ من النقطة نفسها عائدين مغبّرين برماد الخسائر

ما هذه الروائح الكريهة؟

إن كنتِ تُصرّين على أنني أباكِ .. ومعنى هذا أنكِ تتقبّلين كلّ شيء منّي .. تتقبّلينني، كما أنا .. فأقول لكِ إذاً: إن تلك الروائح هي روائح خوفي .. خوفي من العمر، والتجاعيد على وجهي، ومن المرض والعُقم والعَجز والوحدة والفقر والعَوَز والألم والنسيان والتّذكّر المُفرط، وخوفي من الحقيقة ومخلّفاتها، وخوفي من الغرباء والدِّين والمنقّبات والشرطة والجيش والشاباك، وخوفي من ارتطام سيّارتي بشاحنة، واختفائي تحتها .. خوفي من الطريق، وانفجار الإطار والعمر والوحدة والفقر والعَوَز والألم والنسيان في وجهي .. خوفي من الحاجة والاحتياج، خوفي من احتياجكِ لي، واحتياجي لكِ .. أو عدم احتياجي .. أو عدم احتياجكِ ..

افتحي قارورةَ الياسمين الدمشقي، يا أمّي ..

٦) جانيت

تهوى جانيت أفلام الهولوكست مذ فُرض عليها وعلى غيرها دراسة تاريخ اليهود الحديث، وأبرز محطّاته الهولوكست، وذلك في الصّفّ التاسع، وعلى طول السنة الدراسية، ولكنْ، خلافاً لبنات صفّها الأخريات، لم يغادرْها هذا الموضوع، فقد التصقَ فيها كما يلتصق البَقّ على جسد كلب سائب، وكما يلتصق الوطواط على عنق فريسته، لقد أصبح الهولوكست أو "الشوآه" وحكاياتها من أبرز هواياتها .. نعم، هواية بمعنى الكلمة، حتّى إنها كانت تعدّ أيّ محاولة لتعظيم وتضخيم أحداث تاريخية، ومقاربتها للهولوكست، هو بمثابة عمل أرعن ومحاكاة مزيّفة. الحقيقة هي أن ذلك الاهتمام والشَّغَف بالهولوكوست، لم يأتِ من شماتة، ولا من تعاطف زائد، إنما من عشقٍ للدراما التي تسبقُ العَدَم، وخاصّة العَدَم الذي يخطّط له مسبقاً، أو الذي يكون المحطّة الأخيرة في خطّ إنتاج دقيق وشديد البرودة، أو هذا ما يُخيّل لنا، أو تمّتْ روايته لمراهقات الصّفّ التاسع وغيرهنّ من المراهقين الذُّكُور، وحتّى غيرهم من الأشخاص الأكبر بالعمر ..

السؤال: هل كانت جانيت مجنونة؟

بكلمات أخرى، السّرّ أو الدافع المُكوّن الذي يؤدّي بشخص ما إلى الاهتمام إلى هذا الحدّ بحملة إبادة جماعية بعينها، مع رموزها الميثولوجية، أكوام الجثث العارية والنحيلة، والتي مَنَحَتْها الفاجعةُ شكلاً ممطوطاً، أكوام النظّارات، أكوام الأسنان، أكوام الذهب، أكوام الصابون المصنوعة

من دِهْن الضحايا الذي كان معدوماً أصلاً (من أين أتى الصابون إذاً؟)، أكوام الصور، تلك هي الفكرة إذاً .. أكوام الصور .. فتيات جميلات كنّ يعزفنَ البيانو كل ليلة عند وجبة العشاء للعائلة التي تحيا في سعادة لا تُطاق، فتيات جميلات بظفيرات ذهبية، وأشاريط مخملية، يتحوّلنَ إلى مجرّد مستطيل لحمي بشريّ عظميّ في كومة جثث، أو يتحوّلنَ إلى كائناتٍ مقمّلةٍ، تنتظر الموتَ، لتتخلّص من الحكاك الجهنّمي في أجسادها الغضّة المتخشّبة.

سوسن ....

سوسن كانت فتاة جميلة تُتقن الرقصَ والتمثيلَ، تملأ والدَيْها بهجةً مؤقّتةً .. وها هي أصبحت اليوم شبحاً آدمياً مزعجاً أحياناً، فائضاً عن الحاجة غالباً، ملقاة في مصحّ للتأهيل الأبديّ للمجاذيب من أمثالها .. بعد مَرَض سوسن المُفاجِئ، تغيّر كل شيء في حياة جانيت أو في لا- حياتها. أصبحت جانيت على قناعة تامّة، وعلى إيمان أن كل شيء بعد أفول سوسن التي تكبرها بسَنَتَيْن، سيتّجه لا محالة إلى الأسوأ منه .. وهكذا دواليك .. كل مشهد حزين سوف يقود إلى مشهد مهين، وكل مشهد مهين سوف يقود إلى المزيد والمزيد من الخسارات ..

وكأنها تعرف كم أن كل شيء هشٌّ وقابلٌ للكَسْر في أيّ لحظة، وكم نتعبُ عَبَثاً في بناء حياة مثالية، كأوراق الشَّدَّة تعصفُ بها أيّ نسمة صغيرة .. وكأنها تعرف أن ثمّة حيواتٍ محكومةً بالفناء والتهاوي كدالّة تنازلُية بميلان منفرج جداً، تحدّق العيون في تداعي أجسادها، وبالأساس أرواحها ببطء شديد مُميت، هو أصلاً بحدّ ذاته، تلك الأرواح التي تسعى إلى أفولها قبل أن تتفتّحَ ... كانت جانيت تمضي إلى اللا - شيء بوعي غير مُعلَن، باستشراف للشّرّ الحتمي، وبعشق لا متناه له ..تماماً كفتيات الهولوكست

اللواتي كنّ يعرفنَ جيّداً أن الشّرّ والظلمة سيفترسهنّ، سيفترس جمالهنّ دون هوادة، وسيبصقهنّ هياكل عظمية، بظفائر هزيلة ..

جانيت الوحيدة التي كانت تعتقد وتتصرّف فعلياً على أن ما كان قبل ١٩٨٢ هو ليس ما جاء بعدها، ولا ما سيأتي بعدها، أي لا معنى لمحاولة استئناف الحياة، وكأن شيئاً لم يحدثْ، بالنسبة لجانيت، فإن إصابة سوسن بالجنون كانت إشارة أخرى بوجوب الاستسلام لتلك القوّة الرهيبة التي تمتصّنا نحو التّفكّك، وكانت تلك نظرة مثيرة وثورية، وذلك مقارنة بالأمّ التي ظلّتْ تحاول مقارعة الحزن، واستحضار حياتها المشبَعة بالفَقْد كل مرّة من جديد، وكأنها أي حياتها عبارة عن غذاء رُضَّع سريع الذوبان، لم تكنْ جانيت شخصية سوداوية، بالمعنى الحَرْفي للكلمة، ولكنها كانت من أولئك الذين يتمسّكون بعلامة ما، أو لعنة ما تصيب من حولهم كإشارة للانهيار، وأن كل شيء سيصبح أسوأ ممّا كان عليه يوماً بعد يوم، بحيث لا داعي للمحاولة مجدّداً ..

مع أن جانيت كانت تُرتّل في جوقة الكنيسة، إلا أنها كانت شرّيرة بما يكفي، كي لا تُؤمِنَ بالله، وكي لا تربطَ مصيرَها بالعذراء ومزاجها وما يحلو لتمثالها أن يسيلَ، ربّما كانت جانيت تذهب للجوقة لقَتْل الوقت، أو التحايل على عزلتها الاختيارية، أو ربّما لكي تضعَ سيناريوهاً نهائياً للأيّام المتبقّية ... أو ربّما كان لديها ثمّة أمل ما .. أمل بشيء ما يصارع الأفول ... كانت تحلمُ دائماً بأجساد هؤلاء الرجال الهشّين الطّيّبين الذين يُرتّلون معها في نادي الكنيسة، والذين لا يعرفون سوى الطريق من الوظيفة إلى المنزل إلى الكنيسة إلى مراتع الواجبات الاجتماعية /الدينية كالعمامید والقربان الأوّل وحفلات التّخرّج .. التّخرّج من أيّ شيء، ومناسبات الموت على أنواعها، والمواساة والمآجرة عند الكوارث .. هم يقضون من الوقت

في جحور الموتى أكثر ممّا يقضون ... ترى كيف يبدو جسد سليم وهو عار، يخيّل من التصاق بنطاله على منطقة عانته، والطريقة التي يخلق ذلك فيها تعرّجاً مثيراً، أنه يملك سماتِ فحولةٍ قد لا يُستهانُ بها، إن هو أدركَها، وماذا لو كان يدرك ذلك فعلاً؟ بالتأكيد، سيجعله ذلك وحشاً حقيقياً في الولوج.

يخلق وقوفُ هؤلاء الرجال الطاهرين هكذا .. حالة إيروسية عميقة ونقية جداً، وكأنه قد تمّ تكثيفها في معمل، حالة كانت تجعل جانيت تستمني بعد كل مراجعة، أو عرض للجوقة، من دون أن تشعر بأدنى إحساس من القذارة أو الدَّنَس، وكأن ما يسمح ويتاح لها روحانياً كبنت عائلة مترفّعة عن التقاليد .. غير متاح أخلاقياً لغيرها ...

كانت جانيت تعشق التوازنات اليومية، وبأن تمرّ الأيّام هكذا دون نَبْش كبير في الماضي، أيّ ماضي، وخاصّة فيما يتعلّق بالأملاك أو في البيت الذي تسكن فيه بمفردها، فأيّ خراب أو عطل ما من الممكن أن يفتح نزيفاً، ستضطرّ التواصل مع الجيران، وسيسألونها أسئلة، ومن ثمّ، سيقترحون عليها عمّال صيانة، سيسألون هم أيضاً أسئلةً شبيهةً، ثمّ سيجلب الجيران العمّال بأنفسهم، وسيشعرون بالفرصة الذهبية لاقتحام البيت، والشعور أنهم من أهله غير الموجودين أصلاً ... كانت تخاف ممّا قد ينتهكُ عذوبةَ الأيّام المتبقّية، كأنْ يتكوّن شقّ في السقف يُدخل إليّ الفضاء سوائل مجهولة، قد تبدأ، ولكنْ، لن تنتهي، سوائل من اشتياق وأسئلة! حتّى عندما كانت تسمع في الليل أصوات دوريات الشرطة، أو سيّارات الإسعاف بإلحاح يستدعي القلق، لم تحاولْ في الصباح أن تسألَ الجارة نيفين التي تصطاد الحكايا من الهواء، كما يصطاد القرشُ ضحيَّتَه، حول ما كان .. كي لا تجدَ في ذلك

ضوءاً أخضرَ للمضي قُدُماً في تقشير ما يغطّي غير المَحكي عنه، كما يقشّرون الموزَ ..

لماذا لا تعتنين بالحديقة؟ لماذا تتركين السطح هكذا؟ لماذا لا تُحضرين شخصاً يعتني بمدخل البيت؟ لماذا؟ ولماذا؟ تلك الساحة الصدأة والأرجوحة التي لا تجد مَنْ يمتطيها، وحوض السباحة الذي أصبح مكبَّ نفايات الطبيعة (وغير الطبيعة)، هذه الساحة التي استُخدمَت آخر مرّة كسردابِ عزاءٍ صيفي في عزّ الشتاء، ذاك الدرج بإسمنت مكشوف ومفتّت، والذي باتَتْ تنتظرُ ساعة وقوعها عنه .. وانكسارها .. مَنْ سيعتني بها حين تتكسّر؟ ستشاهد أفلام المحرقة، الوثائقية منها والروائية بدون انقطاع ... حتّى الثمل!

عندما عادت من العمل يومها كموظّفة في قسم الأشعّة في هذا الشيء الذي يُسمّى مستشفى، كان ينتظرها عند الباب رجلٌ غريبُ الشكل بأكتاف ضيّقة ومؤخّرة كبيرة جداً نادراً ما تنبتُ كاستمرارية لقسم عليّ بهذا الشكل ...

- نعم، هل تنتظرني؟

- هل أنتِ من وَرَثَةِ رفلة عبود؟

- نعم.

- الرجاء أن تُوقّعي هنا ... على استلام هذا الكتاب.

- ولكنْ، ما هذا؟

- إنه إنذار بالحَجْز، عليكم دَيْن ١٠٠ ألف شيكل ضريبة أملاك، لم يسدّدْها الوالد قبل وفاته.

- لا يكفي أن ترث الأملاكَ هكذا ... هنالك ضرائب وأثمان أخطاء الآخرين يجب تسديدها قبل ذلك.

"تلك العجوز الشمطاء الشّريرة شبيهة صوفيا لورين .. نَقَلَت الدَّيْن إذاً من اسمها لأساميا".

في ذلك اليوم، قرّرتْ جانيت نهائياً مداعبة سليم، وذلك من المناطق الأكثر حساسية لدى كل رجل، والقصد هنا ليس مجمع عانته، بل في منطقة الشرج، وتحديداً في منطقة الفراغ الذي يلتقي فيه العجزان، شيء ما أشعل فيها هذه الرغبة المتوحّشة ..

وبالفعل، ففي حين كانوا يتدرّبون على ترنيمة عن الحياة الأبدية، ووجوب تطهير الذات استعداداً لها، أرسلت جانيت يدها التي بدأت الدهون تُخفي معالمها نحو المنطقة المستهدَفَة في جسد سليم وما ساعدها، على ذلك كان كونهم يقفون في الصّفّ الأخير من المنصّة الخشبية المجهّزة على عجل، بحيث لن يراها أحد، وهي تنفّذ عملها القذر سوى تمثال العذراء الذي كان يدمعُ أصلاً طوال الوقت حزناً على الحال الذي آلتْ إليه البشرية ..

انتفض جسد سليم بشدّة عندما شَعَرَ بشيء يحبو على مؤخّرته المكتنزة، فقد كان سليم حسّاساً جداً لأيّ مَلمَس مفاجئ، وغير متوقّع، وما كان منه سوى أن أمسكَ بيد جانيت، وشدّها بدون شعور، وتزامن ذلك مع فقدانه التامّ لتوازنه، ما أدّى لسقوط الاثنَيْن نحو الخلف، هم وكلّ المنصّة الخشبية المتدرّجة ومَنْ عليها.

٧) صندوق المرضى

-١-

كانت أمّي تصحبني كل مرّة من جديد إلى صندوق المرضى في ديانا في الشارع الذي اكتشفت لاحقاً أن اسمه "الوادي الجوّاني" ... (لا أعرف مَنْ أطلق هذا الاسم عليه)، أما رائحة الكعك بسمسم عند مطلع الدرج، فكانت كأنها تبكي على "العرب المتدحرجين من الأندلس"...

-٢-

كانت أمّي تصحبُني إلى صندوق المرضى في ديانا كل مرّة من جديد، كنّا ندخل هناك متجاوزين رائحة الكعك الأنف الذِّكْر ورائحة الزعتر الغريب ... لم أفهمْ مرّة لماذا يختلف الزعتر الذي يُباعُ مع الكعكة الحلقية المسمسمة عن ذاك المتوفّر في البيت (كنتُ مدمناً على الزعتر والبطاطا المقلية).. فزعتر صندوق المرضى دقيق وناعم جداً، ومليء بالملْح، ولونه بنّيّ فاتح أشبه بالخراء ...

-٣-

كانت أمّي تصحبني إلى صندوق المرضى في ديانا كل مرّة من جديد، مع أننا كنّا نخرج من هناك دون إجابة ...كل مرّة مع ذات الإجابة المعدومة أنفاسها ... كنتُ أتلوّى بالبيت من أوجاع البطن والخاصرة والصدر، ثمّ أشقّ الطريق من بيتنا في حي اسبنيولي القريب إلى ديانا، ونصعد درجات

السمسم والزعتر نفسها، ثمّ أشاهد الممرّضة المخيفة بنظّارات كعب القنّينة، وأسأل نفسي لماذا أعيش؟ ثمّ أتذكّر أن ثمّة حلقة مُعادة من "حارة أبو عواد" بطولة نجمتي المفضّلة آنذاك "عبير عيسى" ... مع أننا كنّا نخرج من هناك دون إجابة .. وهذا ما يُسمّونه في قواميس أيّامنا هذه ... العجز ... وفي تلك الأيّام، بداية "الكُفْر"..

-٤-

العجز وأبو عواد وعبير عيسى وحمّام الهنا و"بربار نحماد" و"بيت فيستوك"... عن أي عجز أتحدّث .. كنتُ أصاب بالحمّى* والآلام المبرحة كل أسبوعَيْن ونصف، وكنتُ أستيقظ باكراً مع الوَجَع، فيقرّر والداي أنني سأبقى في البيت ذلك اليوم أيضاً .. ولم يكونوا بحاجة لكثير من المبرّرات لذلك ... فقد كنتُ أتوجّع بحقّ .. كنتُ أتناول الحليبَ وقرشلة حماد، ثمّ أتقيّأهما مجبولَيْن ببعض، ثمّ أقضم خبزاً عربياً وجبنة صفراء، وأتقيّأهما هم أيضاً، ثمّ ينتهي كل شيء عند حافة الزيت والزعتر والخبز الإفرنجي المحمّص ... ثمّ تلك النزهة اليومية مع الكلب المُتخيَّل إلى صندوق المرضى، حيث السمسم والزعتر والممرّضة المرعبة ... مع أننا كنّا نخرج من هناك دون إجابة ... عن أيّ عجز أتحدّث ..

-٥-

مع أنني كنتُ أكره المدرسة كرهاً أسود، لا يزال يطاردني في الأحلام حتّى الآن ... إلا أن الشعور بأنني في عزّ الظهيرة كنتُ أطارد مع أمّي، ذلك الكائن الذي يُدعى "لا إجابة" شكّل جانباً من منظومة مخاوفي المتشابكة .. قرب سريري، لا يوجد أولاد، فهُم في المدرسة .. في نزلة إدمون شحادة، لا يوجد أولاد، لأنهم في المدرسة في بولس السادس، لا أولاد، فهُم في المدرسة .. في الوادي الجوّاني، لا أولاد، لأنهم وراء أسوار

المدرسة الإعدادية الجماهيرية الديمقراطية على أطراف الشارع .. فهُم في المدرسة، وأنت لا .. ولكنك تكره المدرسة، تكرهها كره "العمى"، وتنتظر أن تكبرَ وتُصبحَ كاتباً مشهوراً، يعيش في المدينة الكبرى، ويضاجع كل شيء حوله، ويسافر، ويسكر، ويسهر، ويلبس، ويأكل السوشي والتاباس، ويعرف الفرقَ بين البيسترو والبراسيري ... إذاً، لماذا هذا الشعور الجارف بالعجز؟ ... أكره الكحول أيضاً ...

-٦-

العجز .. وما هو العجز؟ ... أهو ذلك الشعور بالإقصاء؟ ... جميع الأولاد بالمدرسة وأنا عند درج السمسم والزعتر مع أنني أكره المدرسة ... أم هو ذلك الشعور بالخيبة من العيش؟ .. بمعنى آخر، عندما كنّا نخرج من هناك دون إجابة ...

-٧-

صرتُ أصطحب أمّي كل ظهيرة أحد إلى صندوق المرضى ذاته بعد مئة سنة بعد أن أصبح الباب كهربائياً .. غاب بائع الكعك بسمسم عن دوامه الزعتري اليوم .. يوم قائظ في قلب الشتاء ... أنتظر المطر في عربتي الفارهة .. أراقب عبر الزجاج ... يدخل الناس الذين غادرتُهم، ثمّ يعودون بعدها دون تعابير دراماتيكية تُذكَر ... لا يخرج أحدٌ من صندوق المرضى وهو ثائر، أو يبكي، أو يلطم، أو يُلقي بنفسه تحت عجلات باص البلد الأبيض والأخضر ... هذه المرأة مقيمة في كوخ ديلوكس في صندوق المرضى منذ مئات السنين، وهذا الرجل .. لا، غير معقول .. لماذا تغيّر إلى هذا الحدّ؟ إنه زميلي من مقاعد الدراسة الابتدائية (هذا عندما كنتُ أذهب أصلاً)، أصبح بشَعر أبيض خفيف جداً، وبَدَن هزيل بكرش، لا تنتمي أبداً للجسد المعلّقة عليه ... معصم نحيل .. بنطلون جينز مهترئ قميص

"بولو" مزيّف، لم يغسل منذ دهور .. صندل مقشّر .. عيون ميتة .. كان لا يغيب أبداً عن المدرسة .. يصعد صاحب الصندل الدرجَ ..لا يبحث عن بائع السمسم والزعتر ... تبتلعه الأبواب الكهربائية ... يدخل الناس، ويخرجون بلا إجابات ... هذا ما كنتُ أهربُ منه منذ دهر .. أفتحُ باب عربتي .. أخرجُ منها ... لقد أصبحتُ قريباً جداً!!

٨) الجنازات

استيقظ أميل من النوم، لا يتذكّر سوى حلم المدرسة وحلم سوسن، ويشدّه نحو السرير انتصاب مؤلم، لا يمتّ للحُلمَيْن بأيّة صلة، فلا هو يحلم عن تجربة "Gang bang" مثيرة، يتناوب فيها رجال أشدّاء وأغبياء في الوقت ذاته على وُلُوجه في سجن، أو في ورشة لتصليح السّيّارات، واحد تلو الآخر بهدوء وطبيعية وتناغم شديدَيْن لا يفضح لبرهة جهل هؤلاء الرجال والفجوة القائمة أو المنطقية بين جاذبيّتهم البَدَنية وجهلهم. ولا هو يحلم بمغامرة عارية ومثيرة على شاطئ البحر الجنوبي لحيفا، حيث يختلط الرملُ بالعَرَق بالمَنيّ بالشمس بروائح كريهة تصبح غير كريهة عندما تحتدم الشهوة، ويحتدم العطش والشعور بالقَرَف، والرغبة الجامحة في الوقت والمكان ذاتَيْهما. فأميل يقرفُ من الرمل والروائح الكريهة البشرية على تنوّعها، ولكن الأمر يختلف عندما يكون ذلك كله يحدث بين أشخاص عُراة .. فالفرق بين لباس بَحْريّ لا يغطّي كثيراً وبين العُري التّامّ في أحضان البحر أو بقربه يُغيّر معنى القَرَف وسياقه.

حُلم المدرسة ..

حُلم سوسن ..

وانتصاب مؤلم

مَنْ ماتَ اليوم إذاً؟

مَنْ ماتَ من "جماعتنا"؟

يمارس أميل كل يوم في إجازة المدرسة الصيفية التي يعلّم فيها هوايَتَه المفضَّلة، وذلك رغماً عن الحَرّ المزعج الذي يسود الشارع، وخاصّة في شهر آب، فأحياناً تكون المدينة في ساعات ما قبل الظهر، أو في ساعات الغروب أشبه بمكان، أُلقيت عليه للتّوّ قنبلة نووية، نَثَرَتْ غباراً أصفرَ، يمتصّ ما تبقّى من أوكسجين .. ذلك إنْ وُجد أصلاً ..

كان أميل يؤجّل حمّامه كالأطفال، متحجّجاً بينه وبين نفسه أنه أصلاً لن يشمّ أحد جَسَدَهُ، وأن الصدفَ الإيروتيكية لا تحدُث أبداً في هذا المكان، وهي لا تتواجد ضمن قاموسه أصلاً، ففي أحلامه الرطبة والمرعبة والوردية في آن سوف يتعرّض أحدٌ في هذا اليوم الحارّ لجَسَدِه العاري لعانته وأبرِه وطيزِه وشَعرِ صدرِه الكَثّ ... يأخذ الحمّام معنى عندما يكون الجَسَدُ حاضراً أصلاً، ولكن تلك الإجازة التي يحتفل فيها أميل باختفائه .. اختفاء جسده، ولو مؤقّتاً .. أو إلى الأبد .. وتلك ليست بكائية تنمّ عن تعاسة شديدة، بل هي حسابات واقعية ومادّيّة .. تقول ..لا يوجد اليوم أيّ احتمال واحد في المليون أن أضطرّ لخَلْع ملابسي، والداخلية منها خصيصاً أمام أحد، بهدف إنتاج متبادل للمتعة .. لذا أرغب بتَرْكِ جَسَدِي على عبقه .. منتن من العَرَق وبول القطط .. أما في حال اضطراره لخَلْع ملابسه في غرفة طوارئ مثلاً جرّاء حصول كارثة مثلاً، أو ذبحة صدرية، أو انفجار دماغيّ، أو دَهْس من قِبَل باص فارغ، يتجوّل في الحَرّ وحدَه .. فلندع الطاقمَ يستمتعُ بالرائحة .. رائحة أولاد الذوات .. ولنذهبَ بالعجز الاختياري حتّى آخره .. انتهتْ حججُ تأجيل الحمّام إذاً .. بواسطة بعض التبريرات البلاغية التي تنتهي كالعادة في مستشفى أبيض وأخضر، بتكييف يحمل رائحة خاصّة،

هي مزيج من رائحة كحل الإيثانول ورائحة الاستسلام للآخرين جسدياً .. افعلوا ما تريدون بي .. أريد أن يلامسَني أحد ... أيّ أحد ..

أريد أن أغفوَ قليلاً، أن أفقدَ السيطرةَ على غفوتي، وأن يلمسَني أحد، وأقول له بداخلي، افعلْ بي ما تشاء، وما يحلو لكَ، إنه الشعور ببرودة التكييف في تلك الأماكن التي يستسلم فيها المرءُ لأشخاص غرباء بين جدران بيضاء، فيغفو قليلاً، ربمّا لثوانٍ قبل أن تستقرّ كفّة يد على أحد مسطّحات جسدِه الهشّة، ثمّ يغفو مجدّداً، ربمّا لبرهات أطول قليلاً بعد أن يأخذَ أحدهم عيّنةَ دمٍ، تحمل أسراره المُتخيَّلة كلها، أو يقيس له الحرارة أو الضغط أو تسارع دقّات القلب .. أو ربمّا ينفّذ فيه أمراً أكثر غزوية وإيلاماً/لذّة.

يتناول أميل الورقةَ الملقاةَ على المائدة السوداء المنخفضة المغبرّة، والتي كَتَبَ عليها خواطرَهُ قبل أسبوع حول هذه الفكرة الملتبسة .. فكرة أن تنتقمَ من عشّاقكَ الخائنين والأنانيين ... بسقوطكَ الجسديّ واستسلامكَ لأيدي ممرّضات وتمرجية ينبشون بجسدكَ بدافع مهنيّ حتّى لو كانوا يشتهونكَ.

"ربمّا إن أنا متّ
ستبكي قليلاً وحدَكَ
بين إجازة تزلُّج
وحفلة نبيذ
لتسقطَ دموعُكَ
على مائدتكَ المعقمّة المتحقّقة
ولا تجد أغبرةً تراقصها

تبكي قليلاً ..
وتتذكّرني قليلاً
بجرعة مسموح بها، ولا تضرّ
تتذكّر عدد الشعيرات على هشاشة صدري
وسرعة انزلاق عَرَقِكَ
وسوائلكَ الأخرى نحو سرّتي
وكم نملة كانت تتبختر احتفاء بكَ
على فخذي الشهي ..

***

ربّما إن أنا متُّ
ستسترجع ماضي يدِكَ البيضاءِ المرتعشةِ الخائفة
التي أصبحتْ قاسيةً خشبيةً
وهي تضغط على بطني دون سبب
وكأن بطني كان يجملُ في طراوته
كل رقّة وعذوبة هذا الكون
ليسرقَها معه
إن أنا متّ"

خرج أميل كعادته كل صباح إلى الشارع الرئيس في ديانا، ليستعرضَ أوراقَ الموتى، وتحديداً في عامودَيْن رئيسَيْنْ واستراتجيَّيْنْ لهذا الغرض، لا تُنسى عليهما الأوراق القديمة، ليأكلَها غبار الشارع، العامود الأوّل هو ما يُعرَف بمفترق ديانا، أو التقاطع بين شارع بولس السادس وشارع الوادي الجوّاني، أما العامود "الطازج" الثاني، أو بتعبير أصحّ مجمع العواميد، فهي تلك التي تستقرّ عند تقاطع بولس ونزلة ما بات يُعرَف ببندكتوس، ففي

عواميد أخرى، لا تزال تُنشَر إعلانات نعي لمَنْ نشرت إعلانات قداديس الأربعين لهم منذ يوم أو يومَيْن، في مغالطة زمنية، قد تصدم الزائرَ صدفة، خاصّة وأن الفترة الزمنية بين نشر إعلان النعي والأربعين آخذة بالتّقلّص، دون سبب مُقنع دينياً، على الأقلّ، فلا الأربعين يوماً هي أربعون يوماً بالضبط، ولا ذكرى نصف السنة والسنة تتقيّد بتاريخ الوفاة الأصلي، كما يجب، وكأن عائلات المتوفّين ترغب بتسريع الاحتفاء بالموتى، كي تتفرّغ للآتي في عالم الأحياء، أو أولئك الموشكين على المغادرة، بسبب السرطان مثلاً.

موتى اليوم:

تيلدا سامي عوّاد

أسعد جميل زهرة

سماء رفائيل عيسى

أمين سهيل شهلا

في جنازة اليوم كما هو الأمر في جنازات كل يوم تتوقّف سيّارات المشيعيّن فجأةً على طَرَفَيَ الطريق، يهبط أميل من بيتهم سيراً على الأقدام، كي لا يضطرّ للبحث عن موقف، وبجسده المائل للسمنة ورائحة عطره القوية يزجّ بنفسه بين الرجال حيث تعتمد شدة الزحمة في الجنازة على من تبقى على قيد الحياة من عائلة الميت، وأصدقائه وأنسبائه والناشطين من طائفته الذين يقضون يومهم بأكمله في قضاء الواجبات، فإمّا في جنازة، أو تأبين، أو أربعين، أو نصف سنة أو سنة أو زواج .. وكأن الناس في هذه المدينة لا تفعل شيئاً سوى الموت والزواج .. ولكن أميل لاحظ أن كمّيّة الأشخاص في الجنازات كانت تنخفض بالتدريج حتّى ولو كانت الميتة أو الميت من أكثر الأشخاص شعبية في محيطهم الواسع

والأوسع والأوسع ... كما لم تعدْ الجنازاتُ تبتلعُ ضغطَ الهواء في الحيّز، وتُشكّل الحَدَثَ الأساسي في الشارع الذي تسير، بل أصبحتْ آفةً كأيّ آفة تُشكّل سوية، وبالمحصّل ما يحدث في الحيّز العامّ أو الشارع أو هذا الفضاء الذي ينتظر المارّون منه انقضاءَ الآفات كلها .. ويحلّ .. المَلَل .. ربمّا؟ ولكن الآفات لا تنقضي، بل تتقاطع السَّرْدِيّات وتتعامد وتتوازى غير آبهة إحداها بالأخرى .. أما مرور جنازة خائبة كل يوم من مسار هو الأشدّ اكتظاظاً وتلوّثاً وضجيجاً، فلا يوازيه شيء في غيابه وشفافيته .. بحيث يصبح الرجالُ من روّاد الجنازات تلك أشخاص غير مَرئيين من يوم لآخر .. يزداد اختفاؤهم من جنازة لجنازة، بحيث يمكنهم بسهولة المرور عبر رادارات الذاكرة الجارحة دون أن تلتقطهم هوائياته ...

يرتدي الجميعُ قمصاناً ناعمة بيضاء كمراييل أطبّاء الأسنان القصيرة وبناطيل من قماش السيرولين الرسمي السوداء، أو الكحلية الغامقة على الغالب، والتي تتناقلُها الأجيال من الجدّ، للابن، للحفيد، وهنالك من المتمرّدين المسيّسين قليل مَنْ يرتدون بناطيل فاتحة قليلاً مع قميص أزرق فاتح مثلاً .. دلالة على القليل من النزق، كما وتدخل جميع هذه القمصان في البناطيل، وتكون الفضيحة عندما يكون الرجل قد جاوز السّتّين، وتدلّت خصيتاه من جانب واحد من ساق البنطلون على حساب الساق الثانية، ولكنها في الحقيقة ليست فضيحة، فَمَنْ يأبه بخصيَتَي رجل مُختف، والمهمّ هو أن لا بناطيل جينز في جنازات هذه المدينة، ولا حتّى أحذية رياضية حداثية التصميم، يمكن احتذاؤها في كل مكان، فالأحذية سوداء غالباً، وبُنّيّة غامقة أحياناً، ومغبرّة بالطبع .. كان هؤلاء الرجال على كافّة أجيالهم يضعون نظّارات سميكة، ويبدون وكأنهم ينهضون من النوم فقط لحضور الجنازات، حيث يعودون من بعدها للرقاد الطويل حتّى المرّة التالية. فكان أميل يخاف حتّى أن يسألهم عن أخبارهم، كي لا نقول إغواءهم لمعاشرته في إحدى الزوايا.

لم يكن أميل يزجّ بنفسه بين الجَمْع عَبَثاً دون أن يكلّم أحداً، ففي ذلك اليوم، اخترقت حواسّه رائحة غريبة لعطر لم يعهده في مثل هذه الجنازات الشبة يومية، عطر سَحَبَهُ كالمغناطيس إليه، ليجدَ أمامه رجلاً، يضع نظّارة بإطار مُلوّن .. هذا أوّلاً .. ويلبس بنطلون جينز، يبدو عليه أنه غالي الثمن، ويُخبّئ الجينزُ بداخله جسداً، يصارع الكهولة بعنف، كان شعره أبيض مُسرّح بعناية شديدة، كما كان قميصه أبيض كذلك مثل الباقين، ولكنه يختلف عنهم بأنه مصنوع من قماش البشتان الأكثر حيوية وأناقة، وكذلك فإنه أطلق سراحه خارج حدود الحزام، وذلك أيضاً خلافاً للباقين الذين أصرّوا على إدخال قمصانهم البيضاء داخل بناطيلهم السوداء كطيور البينجوين العالقة بين اليابسة الرطبة والجوّ البخيل.

- مرحباً ...ألستَ أميل؟؟

- نعم.

- أنا سامي، ألا تتذكّرني؟

- دعني، أتذكّر .. آه، سامي .. لقد اختفيتَ

- نعم .. هاجرتُ منذ مدّة لكندا .. وأنتَ؟

- أنا .. ماذا؟.. أنا هنا، لا أزال هنا ..

- غريب أمركَ ... مَنْ يبقى هنا؟ آسف، أقصد ...

- لا حاجة للتّأسّف .. معكَ حقّ

- معظم عائلتكم في ميشيغان على ما أعتقد

- ولكنْ، أنا هنا ... ما العمل؟

- ولكنكَ تبدو جيّداً ... القليلُ من الدهون ... سمعتُ عن سوسن ... أنا آسف، لقد كانت أجمل فتاة في البلد، كانت حبّ حياة أخي، لقد اكتئبَ من وقتها ... لم يُصدّق أن كل هذا الجمال والذكاء قد يتّجه إلى الجنون بهذه الطريقة ..

- لقد أصبحت شبحاً، يرسل لعنَتَه من المؤسّسة المغلَقة من حين لآخر ..

- آسف، مرّة أخرى، لأنني قلبتُ المواجعَ، المرحومُ هو ابن عمّي، ولكنني هنا بالصدفة جئتُ أزور والدتي .. لم آتِ خصيصاً ..

- هذا من حظّي .. كي نلتقي ...

- اسمعْ، أنا متزوّج الآن .. زوجتي فرنسية، ولي ثلاث بنات، نحن في كندا نتقبّل كثيراً هذه الأمور ... هل تتذكّر مغامراتِنا في حرش تشرتشل، وفي شقّتكم الفارغة؟

- نعم ... بالتأكيد ... كنّا أصغر ..

- نعم .. ولكنني لم أنس يوماً رائحةَ جسمكَ.

- يقولون إن المتزوجين يتناسون ..

- أنا لا أنسى بسهولة .. لا أنسى طعم ... في فمي ... دعنا من هذه الجنازة السخيفة ... لنجدَ زاوية ما في إحدى الكراجات التي تُغلَق في مثل هذه الساعة.

- نسي أميل أنه لم يستحمّ يومها .. ولا في اليوم الذي قبله .. ولا الذي قبله. فَمَنْ يستحمّ استعداداً لجنازة روتينية، تملؤها

الروبوتات البشرية .. ولكنه تذكّر ذلك عندما عبقت الرائحة الكريهة في وجه سامي الذي كان ينتظر أير أميل بفارغ الصبر، لِيَلِجَ فَمَهُ المفتوحَ ... ولكن سامي لم يُصدرْ أيّ صوت، بل اختفى ببساطة شديدة كفُقاعة صابون كبيرة، وكأنه لم يكنْ ...

٩) عام على غياب أمّي ...

أتذكّر كل شيء من ذلك اليوم، ولا أتذكّر شيئاً ...أتذكّر كيف كنتُ أتجوّل في غرفة العناية المركّزة في المستشفى الملوّث بشعور"ماذا تريدون منّي؟" الممرّضة قالت إن جهاز المونيتور مُعطّل بسبب ضغط الكهرباء، وأن القِيَمَ الحياتية تهبط وتلامس الصفر بسبب ذلك، وأتذكّر كيف قرّر أقاربنا أنه حان الوقت لإحضار الخوري، ليصلّي عليها، وحتّى الآن لا أعرف متى يعرف الأشخاص ما هي اللحظة التي يجب إحضار الخوري فيها، كيف يعرفون؟! وكيف لا أعرف أنا؟! أتذكّر أننا وَجَدْنَا خوري روم أرثودوكس، كانت والدته تحتضر في الغرفة المقابلة، فبادرتُ بسذاجتي، وأحضرتُهُ ليصلّي على أمّي وسط استغراب الجميع، لأننا كاثوليك، والله لن يتقبّل ذلك، فتمّ إحضار خوري كاثوليك أو لاتين، كي يكون الاحتضارُ سوياً، أتذكّر أن رَجُلَي دِيْن صَلُّوا على أمّي في ذلك اليوم، أتذكّر كيف كانت تغيب عن الوعي، فتتهاوى الأرقام، وثمّ تستيقظ فجأةً، وتُحرِّكُ عينَيْها بـ ١٨٠ درجة، لتبحث عني، ثمّ تستقرّ عيناها عندما تجدني وتبتسم، ثمّ تغيب مجدّداً وأنا أقف كالبله مُفرَغاً من كل شيء، وتقع عيني عبر النافذة الماطرة في ذلك اليوم شديد البرودة على المدرسة التي كنتُ أعلّم فيها، وتحديداً قاعة الفنون، وأفكّر فيما تفعل الطالبات الآن في هذا اليوم الرتيب من وسط الأسبوع، وأتمنّى أن أكونَ هناك، كي لا يكونَ كلّ هذا. تموت أمّي، وأشعر أن بداخلي كيساً من الكلكار الأبيض،حتّى وأنا أنتحب في الممرّ ... لا أريد هذا كله ... أريد إلغاء أعمالي كلها لهذا اليوم، ومشاهدة فيلم

رومانتيك كوميدي ليو غرانت الأحمق في البيت، وكأن شيئاً لم يحدث.

ما لا أتذكّره ... تلك اللحظات أو الساعات الفاصلة بين وَضْعي لرأسي على الوسادة في تلك الليلة ... وغفوتي ... وجسد أمّي المُنتظَر في الثلاجة.

أمّي ..... ها أنا عالقٌ مع مفرَش الطاولة الدمشقي.

ها أنا عالقٌ مع مفرَش الطاولة هذا، مفرَش باب الحارة والمسلسلات السورية كلها .. المفرش نفسه الذي تركتْه أمّي في المنزل، وتركتْني معه، لنعدّ ما تبقّى من دقائق وأيّام وشهور .. لكن مفرَش الطاولة لا يعرف العَدّ، بل يعرف تجميع الأغبرة التي لن يبقى مَنْ يزيلها ..

انتشر هذا النوع من الأغطية في دمشق أو الشام في سنوات السبعين البهية من القرن العشرين ... ومن ثمّ، عبر الحدود .. إلى أين؟ إلى هنا "طول عمرك، يا زيبة" .. الحدود مقفلة طيلة عمرها وهي مقفلة الآن أكثر من أيّ وقت مضى .. لا أمّي بقيتْ، ولا الشام سلمتْ، وبقي هذا المفرَش المطرّز بغير عناية فائقة... أذكر عندما كنتُ أصغرَ، كنتُ أتراهن مع جدّتي، ومن ثمّ، والدتي قبل كل مشهد في أي مسلسل سوري من فئة "البيئة الشامية" أو الدراما الاجتماعية بأن المفرَش سوف يظهر في أثناء تجهيز "ستّ البيت" القهوة للمرّة الألف خلال الساعة التلفزيونية، فكل قَطْع بين مشهد وآخر ينتهي بفنجان قهوة جاهز، أو أن أحدهم يغليه، ليقدم على أغطية كثيرة مثل هذا الذي تبقّى لي .. هنا أمامي ..

***

كأس العَرَق له في الشام طَعْم آخر .. أسطوريّ وخرافيّ، وما بينهما.

إضافة إلى اللوز الأخضر.

أمّا طبق التبّولة، فهو حكاية أخرى .. هو متبّل، أو فلنقلْ مجبولٌ بكلّ ما هو ساحر .. بالخير والوفرة.

طبق التبّولة كان يصنعُ في الشام، بينما يجري نبعٌ خاصٌّ من تحته.

كلّ طبق في الشام له نبعُهُ الخاصّ الذي يجري تحته في أثناء تجهيزه، الحمّص، البابا غنّوج، اليلانجي، المكدوس، والكبّة ... آخ من الكبّة!

الشلالات تتدفّق بين صواني الكبّة ... أما الماء، فطَعْمُها مِسْكٌ، والقهوة طَعْمُهَا زنبقٌ، والحليبُ رائحتُهُ ياسمينٌ، والليمون يقطرُ عسلاً .. والجبنة البلدية تفيض حناناً ..

هذا ما كان يقوله أبي عندما كنّا نجلس معاً لمشاهدة مسلسل سوري قبل ظهور المفرَش وبعده.

مات أبي.

واتّضح بعدها في جهاز كَشْف الكذب الذي خَضَعَ له في المطهر أنه كان يكذب ... طيلة الوقت.

وأنه لم يزر الشام أبداً.

وأن لا مكانَ اسمه "الشام" على الخريطة أصلاً، وأنه مجرّد اختراع للرومانسيين المغالين في اشتياقهم لما لم يكنْ أبداً.

ثمّ .. ماتتْ أمّي.

فكيف وَصَلَ هذا المفرَش من الشام إلى هنا؟! ...

لا علينا ..

وها أنا أحاولُ تهوئةُ البيت.

وأجلس أمامكَ، أيّها المفرَش الغبيّ ... علّني أنجح في شرب فنجان واحد من القهوة .. فنجان واحد قد أُلطّخُكَ بتفله.

-٢-

أبي .... قفصٌ خشبيٌّ قديمٌ

عليكَ أن تدخلَ بيتاً كبيراً يقطر شمعاً مُوجِعاً، عمرُهُ ٦٠ عاماً في حجرة (فيما يلي: البيت).

كُتُبُ الكيمياء باللغات جميعها، ودفاتر المعادلات الصعبة مثلاً ..

معادلات الأكسدة والحرق والاختزال.

وتفتيت اللحم بحامض الكبريتيك.

عليّ أن أختارَ معادلةً واحدةً .. دفتراً واحداً، وكتاباً واحداً، وبعضَ الروايات والصّور

كَمَنْ يقف أمام محرقة بشرية، وعليه اختيار ولد واحد من أبنائه، لينجو.

صورة عائلية قديمة في بحيرة طبريا لحظات قبل أن يغرقَ فيها طفل، كان يلهو معنا، لتبدأ حساباتٍ جديدةً.

رواية "في بيتنا رجل" لإحسان عبد القدّوس، وقد قَضَمَتْ أطرافَ غلافها الفئرانُ قبل عشرين عاماً أو أكثر.

رواية "لا، ليس جسدك" لإحسان عبد القدّوس، وقد تغيّرت أحداثُها تماماً بعد أن عدّلها الجنونُ الذي دخلَ مخبَأها، ولم يخرجْ.

شريط فيديو يُقال إنه لقِرْشٍ يلتهم رجلاً.

أغطية الرأس من الدانتيل تضعها النسوة في الكنائس لحَجْب دموعهنّ أو غوايتهنّ عن النَّظَر.

أقراص دواء تغيّر لونها، وتلاشتْ مادّتها الفعّالة، لتصبح حبّات رمان.

أسطوانة سوداء قديمة مجرّحة لمقامات عراقية، لم أسمعْها من قبل.

فيلم بورنو من فترة النهضة الإباحية الألمانية.

كَمَنْ يقف أمام مخلّفات قصفٍ غادرٍ لبيته، وعليه اختيار شيء واحد، يُلخّص كل ما قد فات.

دفتر أرقام الهواتف الذي ألّفتْه أمّي بخطّ يَدِها.

قبل أن يخترعوا الهاتف النّقّال.

عندما اشتريتُ أوّلَ هاتف نقّال.

عندما كان رَقْمي من ٨ خانات.

عندما غيّرتُ رَقْمي.

عندما أصبح رَقْمي من ٩ خانات.

عندما غيّرتُ رَقْمي مرّة أخرى.

عندما أصبح لديّ رَقْمان.

عندما كَتَبَتْ أمّي اسمي الشخصي فقط.

عندما كَتَبَتْ أمّي اسمي الشخصي واسم العائلة.

عندما انخفض عدد الخانات من ٩ إلى ٧.

عندما خسر اسمي الشخصي حرفاً واحداً.

عندما أصبحتُ بلا اسم عائلة.

عندما أصبح رَقْم هاتفي بدون خانات تُذكَر.

كَمَنْ يقف أمام ركام سنيه، وعليه اختيار يد مبتورة واحدة من جسد صباه (وفق ما ورد: البيت).

سأختار قفصَ عصافير أبي الخشبي القديم هذا.

ما تزال فتحةُ الماء المتشقّقة

فيه تنتظر أن يرويها أحدٌ.

سأُعبّئ في القفص هذا الغياب كله ..

١٠) الوحدة

أغفو قليلاً في عصرونة جمعة ربيعية من تلك التي لا تتوقّف عن ذَرْفِ بعضٍ من دموع الاشتياق. أستيقظُ فجأةً، لا لشيء هامّ؛ فنشرة الأخبار تُعيدُ إنتاج ذاتها كلّ ساعة، وثمّة عدّاد جافّ لمَنْ قُتلوا، حتّى رائحة الموت تأبى أن تفوحَ منه. أستيقظُ أكثر، فلا أجدُ شيئاً قد تبدّل، حتّى إن القطط الثلاث الشقراوات (لماذا ندّعي دائماً بعَنَد أنّ جميع القطط من الإناث؟!) ما تزال تجثم على صدري، وكأنها تُدلّكُهُ في نادٍ صحّيّ سيّئ السمعة، على البطّانية الناعمة "الكيتش" على شكل القطط نفسها. أنتصب كالحجر، أشعر بالعجز اللذيذ. لن أستمنيَ الآن، لن أسحبَ بطاقةَ الحلّ الأسهل الآن.

ولكنْ، حلّ لماذا؟ لما ...

فأنا وحدي أنهيتُ أبحاثي الأكاديمية، لا ملفّات للترجمة لنهاية الأسبوع هذا، لم أخطّط للخروج، وكما يقول سليم بركات في كتابه الرائع "هياج الأوز": لا أير .. لا رجل .. لا ترجمة.

في هذه الحالة من الخواء اللذيذ الرطب أتّجه للأفلام القديمة بالأبيض والأسود، وتلك فرصة ذهبية لمتابعة/ عدم متابعة أحدها. فيلم "ثرثرة فوق النيل" وتلك الجملة العبقرية "الفلاحة ماتت، ولازم نسلّم نفسنا ... " إنه ذلك الشعور الدائم بأنكَ مُتّهم بشيء مرتبط بانتهاك حقوق مَنْ هو أضعف منكَ، ممّا يجعلُكَ تترقّب طيلة الوقت اللحظةَ التي سيُقرَعُ فيها البابُ

بعنف، لينتظركَ العقابُ من وراء الحاجز الذي يؤوي عصاراتِكَ، حتّى لو كانت مُنتنة، عقاب على جرم، قد لا تظنّ أنكَ ارتكبتَهُ مرّة.

"الفلاحة ماتت، ولازم نسلّم نفسنا ... "

و

"الفلاحة ماتت، ولازم نسلّم نفسنا ... "

أنظر إلى مائدة "إيكيا" المربّعة الصغيرة الحجم بإعجاب، تلك التي يمكنها أن تحوي قمامةَ العالم كلّها. ينبع إعجابي من كوني استطعتُ أن أشكّل من تفاصيل أيّامي المتتابعة وغير المتشابهة بليلها ونهارها، ثمّ نهارها وليلها: ليل – نهار – ليل - نهار - ليل - نهار، مُنشأة فنّيّة موحية. أ إلى هذه الدرجة تهافتت الأيّام بانسيابية متناهية، لترتطم بأقدام هذه المائدة التي صارت مرتعاً لكلّ ما لا مكان له في خزانة. لا خزانات في مربّع الوحدة ... كلّ حاجياتي في الخارج، أُعلّقها هنا وهنا وهناك، كما أنها تقع منّي على هذه السجادة، وتلك البلاطة العادية وهذه العتبة، ولكنني أنسى التقاطها من هنا وهنا وهناك.

ولاعة: هناك عدّة ولاعات: صفراء، خضراء، تعمل، عطبة، على شكل قنفد، على شكل امرأة صدرها عار. ولاعة واحدة فقط اشتريتُها، أما البقية، فقد أخذتُها من أناس، لا أعرف كيف أصنّفُهم ضمن أيّامي المندفعة نحو سيقان هذه المائدة، كما قلتُ. ولاعات الدنيا كلها لديّ. ولاعات الدنيا كلها وطني الذي لن أُفرّط فيه هذه المرّة على الأقلّ.

صورة عائلية: لقد نسيتُ أن أُعيدَ هذه الصورة العائلية لمكانها بعد أن أخرجتُها من وكرها ذات ليلة عاصفة، عندما كنتُ شبه متأكّد من أنني سأموت غرقاً ليلتها، حيث سينهار عليّ الجبلُ الذي بُني عليه هذا البيت

بعد أن تخنقَهُ المياه، لذا كان عليّ أن أُخرِجَ هذه الصورة، وأتأمّلها قليلاً، كي أحيطَ بالدراما من شتّى جوانبها. فهؤلاء إمّا ماتوا، وإمّا سافروا، وإمّا جُنّوا، وإمّا تاهوا وهم في طريقهم إلى دير، يبيع زيوتَ خلاص عند قمّة الجبل. اتّضح بعدها أنه أبعدُ بكثير ممّا كانوا يظنّون. أتأمّل صورة مَنْ تركوني هنا وذهبوا، ينتفض قلبي، أو كما يقولون يُرَفْرِفُ قلبي قبل موتي المفترَضِ المُنتظَرِ. أشعر بوحشة باردة، ثمّ إنني لم أمتْ، بل نسيتُ أمر الصورة.

ميزان حرارة: مَنْ سيكتشف الجثّة، إن ابتلعتْني الحرارة داخل سراديب العَدَم؟

فاتورة: فاتورة واجبة السداد لضرائب أملاك وما شابه منذ ستّين عاماً وأكثر، باسم أبي، رحمة الله عليه ... فليسدّدها هو.

Usb قديم: لن أُجرجرَ نصوصي بعد الآن من مكانٍ لآخر، ومن مدينة كبرى لمدينة أصغر، فلتصدأ هذه القطعة البلاستيكية التافهة، لن أجرجرَ بعد الآن حكاياتي وحيرتي والتباس ملفاتي والعار في ماضي أرقي ... من مكان إلى مكان آخر (ولكن البلاستيك لا يصدأ، بل ينصهر).

Usb جديد: سيّارتي الواقفة في موقف رحب لا ينتهي، لا حدود له، هو موقف انتظار خارج حوانيت كبيرة عملاقة، هي الأخرى لا تنتهي. يمكنني شراء كل شيء، فكل شيء يدعوني لذلك. أخرج من حانوت التجهيزات البيتية، ومعي قطعة بلاستيكية جديدة لتخزين الذاكرة بعد أن أقنعتْني عاملة الصندوق الروسية بأن أستخرجَ بطاقةً لنادي الزبائن، لأُدلّلَ ضمن مزاياها أفراد العائلة كافّة: أبي، أمّي، أزواجي وزوجاتي، قوافل بناتي وأبنائي، كلابي وقططي، عظام جدّاتي وأجداد جدّاتي، جسدي. تُحوِّل هذه الأماكنُ الفردَ إلى مادة ما .. هلامية .. غير مَرئية .. أخرج من حانوت التجهيزات البيتية غير مَرئيّ. أدخل سيّارتي الواقفة في باحة ليلية، لا حدود لها، لا

يرتطم فيها أيّ من أيّامي المتدافعة. يمكنني أن أدخل السّيّارة في هذه الحالة، وأن أجلسَ فيها هكذا دون أن ننطلق ربع ساعة، أربعين دقيقة، ساعة، ساعَتَيْن أو أكثر. أُدوِّر المذياع.

"الفلاحة ماتت، ولازم نسلّم نفسنا ..."

و

"الفلاحة ماتت، ولازم نسلّم نفسنا ..."

طَعْمُ الخبز

سَقَطَتْ قطعة الحجر من قلبي .. وتحطّمتْ عند أطراف أصابع قَدَمي الرقيقة الناعمة التي لا تزال غضاضتُها تستبيح ذاك الدَّنَسَ البريءَ كلّه. تجمّعتْ أتربتُها عند الحدود بينها وبين السجّادة "العجمية" المزيّفة وخراء القطط المستوطنة وأشلاء جسد بلاستيكي، كان ينام آمناً داخل بيضة مفاجآت، طالها القصف الطفوليّ غير النادم.

تنفلق قطعة الحجر عن اختيارات غير مبشّرة (تلك التي سَقَطَتْ من قلبي.. أذكّر).. ضعْ دائرة حول الإجابة المناسبة: خيار أوّل هو صورة جدّتي تزرعُ الزنبقَ في صفائح السّمنة والزيت، لا لسبب سوى أنها ترغب في إتمام الواجبات المدوّنة لها في قائمة، دسّتْها لها والدتها الأمّيّة في جهازها، عندما غادرت الشام عروساً سورية. ولكن جدّتي لم تكنْ سورية يوماً، بل كانت رومية من "الجبل"، وكان انتقالها من ديار الروم لنواحي اللاتين أشبه بفصول المرَثية التي لا تتفكّك حروفها. ها هي الإجابة تفلتُ منّي من جديد .. على أيّ حال، لم يصمد الزنبقُ كثيراً من بعدها، كما تسلّق الصدأ الصفائح، أو كلّما تسلّق الصدأ الصفائح ..

تنفلق قطعةُ الحَجَر عن صور بعدسات سيّئة (تلك التي سَقَطَتْ من قلبي.. أذكّر).. ضعْ دائرة حول الصورة اللائقة: صورة ثانية هي تلك التي لا تُظهِر شقوقاً في وجهك الناعم الطفولي الحريري. هي تلك التي جمّدت الوقتَ، وأدخلتْه لينامَ بعد أن خَدَعَتْه بحكاية كاذبة حول أمير وسيم أسطوريّ، يردم ثقوبَ فتاة فقيرة بلهاء، ويُحوِّلها إلى أميرة بلهاء أيضاً. ولكنّ التجاعيد تملأ وجهك وعنقك أصلاً، وهي خبيثة حيث تكاد تختفي في أحيان، فيبدو وجهك صافياً كالماء المتساقط فوق جفني الآن من دلف الشتاء. وفي أحيان أخرى، تحتلّه التجاعيد، لتؤكد أنّ كارثةً نعشق نسيانها مرَّتْ من هنا، وسَكَنَتْ بيننا. ها هي الإجابة تفلتُ منّي من جديد. على أيّ حال، فإنّ مسحة صغيرة من المسحوق الدهنيّ بلون بشرتك، يزيل آثار الهزيمة قليلاً، أو ينسينا وطء الهزيمة لبرهة ..

تنفلق قطعة الحجر عن شرائح حركية مُصوّرة رَقْمياً من أعلى (تلك التي سَقَطَتْ من قلبي، ما أزال أذكّر).. شريحة خامسة هي تلك التي تُظهِر صدرَ أمّي حين كان مليئاً ومكتنزاً، وحين كان الملاذ الوحيد لحيرتي، أو حين كنتُ غلاماً، يُدوِّن بالهواء كلماتٍ، أعتقد وقتها أنها ستتطاير، وتخرج عبر ثقب الشبكة المعدنية المثبتة حول النافذة. ولكنْ، يبدو أنّ الكلمات التصقتْ بالسقف، وتكثّفتْ من جديد، لتصبحَ مطراً من الأوهام الفاعلة ... على ما يبدو. ها هو صدر أمّي يتدلّى محتلاً الحيّز القلقَ، ويلامس هضاب الطحين التي ستصبح بعد قليل عجيناً، لا يحلو صُنعه سوى في الفجر. ولكن أمّي كانت ابنة طبقة متوسّطة، وهي لم تستيقظ مرّة في الفجر، لتعاركَ العجين. ها هي الإجابة تفلتُ منّي مجدّداً. على أيّ حال، لا تترك الملابس الرّحبة الصدر، والتي ما تزال تملأ المكان مجالاً للشكّ بأنّ طعْم الخبز كان سيكون ألذّ وأكثر سخونة من الفتات المتيبّس الذي أحاول أن أمضغَهُ الآن، أو الذي أحاول أن أدعَ القططَ تمضغُهُ مكاني.

١١) ميس الريم

كانت الحرب تزحف سريعاً على مسرحية ميس الريم في ربيع ذلك العام، ١٩٧٥، وخاصّة عندما كانت فيروز تعزّز ذلك عبر النصّ الميلانكولي الذي تردّده من كتابة الأخوَيْن رحباني طيلة المسرحية الأسطورية، والتي زرعتْ رموزا بريئة في وجود حضاري كامل على الرغم من الحرب التي أوقفتْها وأطفأتْ مسرحَ البيكاديللي البيروتي الشهير الذي كانت تُقدَّم فيه مسرحيات الرحباني، بواقع مسرحية جديدة كل سنة، تُقدَّم في البيكاديللي أوّلاً على مدار الربيع والصيف، ثمّ تُعرَض في معرض دمشق الدولي في أيلول، ليبدأ التحضير فوراً للمسرحية التالية خلال أشهر قياسية، كتابةً وتلحيناً وتدريباتٍ وأزياء ورقصاتٍ و و و ... عالم جميل ساحر يدور بدقّة تبدو أبدية ..

لكن جُمَلَ فيروز السوداوية وهي تقول لجدّتها عبر الهاتف، وقد بدأت الشقوق تتسلّق وجهها:

وما بقى بكّير، يا ستّي!!

إضافة إلى جُمل أخرى تُبشّر بالسوء والنَّحْس والضمور، على الرغم من زهو الأزياء وشَعْر فيروز الأصفر المندلق بنعومة وسِحْر لا يُذكِّران أبداً بصاحبة الأنف الطويل المعقوف، والشعر الأسود القصير والمُملّ ...

توقّف عرض المسرحية بعد أن اجتاح القتتال الطائفي الأهلي بيروتَ

وشوارعها في الثالث عشر من نيسان عام ١٩٧٥، وبدأ بالزحف على خاصرة المدينة الفنّيّة الهشّة التي اعتقدتْ وَهْماً بأنها حصينة، ثمّ ومع محاولات العرض المجدّد مرّة تلو المرّة رغماً عن الظروف المأساوية، وازدياد أصوات النار المختلطة بنغمات الفرقة الموسيقية، تآكلت فرص عرضها مجدّداً قبل معرض دمشق الدولي، أو خاتمة برنامج عروضها، كما لم يجهز الرحابنة بعدها لعمل جديد ...

تمّ اختيار سوسن بعدها بأربع سنوات، لتؤدّي الدورَ نفسه على خشبة جمعية الشبّان المسيحية من إنتاج المدرسة، ليس لأن صوتها يشبه أو حتّى يُذكّر بصوت فيروز، أو فلنقل يقترب بملامحه الهزيلة من صوت الديفا المتوّجة، بل لأنها كانت بحدّ ذاتها مشروع ديفا بنكهة خاصّة ...

كانت فيروز تلعب بأثر ارتجاعي دور النبية في المسرحية، بائعة الصحون في زيّون في ضيعة أوهام رحبانية أخرى، وماذا أكثر من الصحون قابل للتّكسّر رغم جماله وأناقته؟! فكانت طيلة الوقت تشير للخطر القادم، ونفاد الوقت، ووجوب عدم تأجيل الفرح، وتأجيل ما يمكن القيام به الآن، لأن المجهول غالباً سيكون قاسياً.

منذ أن دخلت فيروز خشبة المسرح، وأدّت مشهد العساكر، وبعد أن أخبرتهم أن سيّارتها معطّلة، وبأنها يجب أن تلحقَ العرس مع أنها شبه متأكّدة بأنها لن تلحقَه، وبأن الأمور لن تسيرَ على ما يرام، وبأن أموراً كثيرة ستتبدّل، وستنهار بلادٌ، وتنشأ ممالك صغيرة متوحّشة بلا تيجان، منذ تلك اللحظة بدأت تسمعُ أصواتٍ غريبةً، وبدأتْ سوسنُ أيضاً تسمعُ أصواتٍ، ليست غريبة، بل مزعجة، تنخر في الأعصاب، وتُفتّتها، أصوات ستدمّر بيوتاً، وستُحيي أخرى صغيرة أكثر، وباردة، تجعل المرء ينسى ما كان حتّى إنه لا يبذل جهداً لاستحضار فردوس مفقود في ليالي الشتاء

الباردة حين تنقطعُ الكهرباءُ، أو لا تلتقط هوائيات التلفزيون شيئاً سوى قنوات البوم والغربان.

بدأت أصواتُ المدافع والتفجيرات تتصاعدُ عندما كانت فيروز تغنّي سألتك حبيبي .. لوين رايحين: دلالة على المجهول المعتم الذي سيُقبل الجميع عليه استعداداً لحوارات مسرحية فكاهية وعميقة، إلى حدّ ما، تتلوها الأغنية الميلانكولية بامتياز "يا سنيني اللي راح ترجعيلي، ارجعيلي شي مرّة، ارجعيلي، وانسيني عبواب الطفولة، تَ أركض بشمس الطرقات". وقد ساعدها حينها وجود تِقْنيَّة البلاي باك، والتي انتشرت في المسارح الغنائية في أواسط السبعينيات من القرن الماضي، بشكل مُلفِت، ولكنْ، في المدينة الصغيرة في شمال فلسطين آنذاك، لم يكن هنالك مسرحٌ غنائيٌّ أصلاً، بالتالي لم يفقه الأشخاصُ شيئاً عن البلاي باك، كما كانت التِّقْنِيَّاتُ الصوتيةُ متواضعةً، ومستوى العزف، إلخ، إلخ، فلم تستطعْ سوسن والأصوات المفتّتة تفتك فيها أن تتملّص من مصيرها ... فأخذت تردّد الأغاني السوداوية بهلع مستتر، يخاف من الانحياز عن الكمال المرسوم له مع أنه ماضٍ إلى ما هو مضادّ للكمال، بل يسخر من ملامحه كلها التي لا تحمل من الإبداع شيئاً .. فالمال مُملّ غالباً، ولكن الجنون مزعجٌ، ويبعث على الابتكار، الجنون يُقوّض حياة الآخرين المحيطين، ولكنه بدون شكّ يبعثُ على الإعجاب والغيرة أحياناً، لما يضمّ بين ثناياه من حُرّيّة لا متناهية، تقمعها الحبوب المهدّئة والعقاقير الكيميائية المختلفة التي تضع ما يشبه الغشاءَ السميك على المخيّلة ...

نجلس أنا وأميل وجانيت وأمّي .. أتمنّى أن أكون مجرّد خشبة متعفّنة من وراء الكواليس، ترسم أمّي ابتسامة، كانت تسمّيها ابتسامة الملك حسين، وهي ابتسامة عامّة، لا تفارقُ وجهَ صاحبها، ولا تفضحُ مزاجَهُ

الحقيقيّ، أو ما يشعر، بل تُبقيه في حالة ودودة غير مفهومة، ولكنْ، كما كانت تقول لنا قبل خروجنا من البيت في كل مرّة، لا تنسوا ابتسامة الملك حسين، فهي سرّ النجاح والقبول، وسوف تُقرّبُكُم من أهدافكم، وستجعل الجميع يؤمنون بقدراتكم حتّى لو لم تكن موجودة بالفعل، في مسرحية "ميس الريم"، كنّا نجلس مبتسمين مع أن جانيت كانت ستموتُ غيرة من أختها الأجمل والأكثر حضوراً وموهبة وإعجاباً من الجميع، وكان أميل يبتسم، لكنه كان يتمنّى أن تتوقّف أخته عن الغناء فوراً، لأن المقارنة بين صوتها وصوت فيروز هي عبارة عن فاجعة حقيقية أكبر من الفواجع التي تتنبّأ بها الأغاني والمسرحية بمجملها، وبأن تكتفي بموهبة التمثيل المتواضعة لديها، وخاصّة أن هذه المسرحية لا تتطلّب ممثّلين جبّارين، ليؤدّوا الأدوارَ فيها، أما أنا، فقد كنتُ أحلم باللحظة التي أعود بها إلى بيت جدّتي ماري، لأختبئ في الدولاب، ورائحة الصابون النابلسي داخله، والتي لم تختفِ من هناك لآلاف السنوات، لنُمثّلَ أنا والدُّمى الشقراء منها والرقطاء أحدَ مشاهد المسرحية المحبّبة، مثلاً مشهد الاستجواب الغنائي لزيون، أو مشهد مختار المخاتير.

كان صوتُ المدافع يتصاعدُ بقوّة متسارعة، ومدير المسرح يُوشوشُ أحدَ أعضاء فرقة الرحابنة بأن عرضَ الليلة كان يجبُ أن يُلغَى، وخاصّة بعد أن وَصَلَتْ مساعي التهدئة إلى طريق مسدود، وكان هذا بعد أن غَنَّتْ فيروز أغنيّتها الرومانسية والسوداوية هي الأخرى "حَبّو بَعضُن" ..

شَعَرَتْ سوسن وهي تغنّي "حبّو بَعضُن" أن السّيّارة التي تجلس فيها كجزء من ديكور المسرحية ستتفكّك قريباً، وهي ستتفكّك معها هذا غير المشاكل التَّقْنيَّة الأخرى، حيث لم تكنْ السّيّارةُ سيّارةً بالفعل، كانت عبارة عن ألواح خشبية، تشبه خلفيات الدواليب، أو هي كذلك، أكثر من شبهها

للسّيّارة، حتّى للسّيّارات التي صُمِّمَتْ في بداية معرفة البشرية بهذه الآلة، أو احتمالاتها التي ستأتي لاحقاً ...

تتعاظم الأصوات .. تتغلّب فيروز بقامتها الشامخة، وذقنها التي لا تنزل عن مستوى حدّ معيّن، على المخاطر المداهمة.

تفقد سوسنُ شعورَها بالمكان شيئاً فشيئاً، ثمّ تحدث عدّة حوادث متتالية، لا تُساهم في عودة سوسن إلى ذاتها مُنسلخة عن الأصوات الموسوسة ..

تقطع الكهرباء، ثمّ تعود ...

تتعثّر إحدى الراقصات على أغنيّة "يا مارق عالطواحين"، وتقع أرضاً، ولكن الأمر لا يتوقّف هنا، حيث يتحوّل الراقصون والراقصات إلى أحجار دومينو، فيسقطون بسبب ملابسهم الرخيصة المتشابكة أحدهم تلو الآخر، وأحدهم على الآخر، ليتحوّلوا في نهاية المشهد السوريالي إلى كومة من الأجسام البشرية التي تنتظر مَنْ يخليها، ويُلقي بها إلى غابة تخفي آثار الموقعة ..

وعندما يحلّ موعد الأغنيّة التي ستتّصل فيها فيروز بجدّتها، لتقولَ لها : ستّي، يا ستّي، اشتئتلّك، يا ستّي ..

تفقد سوسن صوتَها إلى الأبد ...

١٢) لا شيء يهمّ

القمامة:

أُزيحُ القمامة من جانب إلى جانب آخر، أجدُ بين القمامة ورقةً، كُتِبَتْ عليها كلماتٌ، كانت ستُغيِّر كلّ شيء، نظرياً على الأقلّ؛ ولكنْ، لا شيء يهمّ ...

لا شيء بات يهمّ، فكحلي الذي ساحَ فجأةً، لن يجدَ مَنْ يجمعُ فتاته الذي جفّ، ليستحضرَه من جديد ... كما أن براعم جثّتي أخذت تنور، لتصطفّ الديدانُ بأدب شديد عند بوّابة نومي.

أُزيحُ القمامةَ من جانب إلى جانب آخر، أجدُ بين القمامة بطاقةَ تعريف لحُبّ عابر، قد يصبح غير عابر، أفرزُ البطاقة في الجانب المُعدّ للحَرْق .. نظرياً على الأقلّ ... فلا شيء يهمّ.

لا شيء بات يهمّ؛

وأحمرُ شَفَتَيّ الذي تشقّق سطحه فجأةً، لن يجدَ بعد اليوم مَنْ يضع كفتيه في فضاءات سقوطه، ليُلملِمَ شذراته المتناثرة، ويمضغها، كما أن براعم جثّتي تنوّر وتنوّر، وتتجمّع الأتربة في هضاب متناسقة حول مستطيل فارغ بطول قامتي.

أُزيحُ القمامةَ من جانب إلى آخر، أفرزُ القمامةَ الخيّرةَ عن القمامة الشّرّيرة، وأحتار أين أضعُ هذه الصورة. صورة أوّل رحلة مُجُون إلى باريس بملابس قبيحة، كانت تميّز بدايات التسعينيات من القرن الماضي. أضعُ

الصورةَ في القمامة الخيّرة التي لا يتمّ إعدامها فوراً، مع أن مظهر الملابس والشارب الدقيق الغريب يبعث على الانتحار؛ فلا شيء يهمّ.

لا شيء بات يهمّ .. بحقّ.

والبرَق الذي تموضع طويلاً على طلاء أظفاري باتَ يتساقطُ بسرعة مذهلة، وكأنني عامل/ـة تنظيف، لن يجدَ هذا البريق بعد الآن أميرة ليل - تعرف الكثير - تضعُ وجهها متوسّلة تحت أظفاري، لتلتقطَ خدودَها، أو ربمّا طرف لسانها قطعةَ لمعان، تجعلها أصغر وأقلّ حزناً..

تنبتُ أطراف جثّتي كأشواكِ هذه الصّبّارة العتيقة التي ألقيتُ بها دون تفكير في خانة القمامة الشّرّيرة ...

الحاجيات:

أسير عبر أرض مكشوفة، شاسعة مفتوحة، لا مفرّ فيها من حريق الشمس، وذلك الهاون،

أنظر على استطالة ظلّي عند نقطة محدّدة،

أدخل سوبرماركت جديداً، وأبحث عن صبغات طعام اصطناعية ...

ماذا تتطلّب الوحدة أيضاً من حاجيات؟ ... سأتلو القائمة ...

سأتناول في اليوم الأوّل أرزاً أصفرَ،

وفي اليوم التالي، أرزاً أخضرَ،

وفي اليوم التالي، أزرقَ،

ومن ثمّ زهريا،

وسأقسمُ علبة الأناناس المحفوظ منذ قرون على أيّام الأسبوع. في كل يوم دائرة جديدة مفرغة.

لا شيء يهمّ .. ولا حتّى أن يكون الأناناس قد تمّ استيراده خصيصاً من واحة قرب القمر ....

أسير عبر أرض مكشوفة، شاسعة مفتوحة، لا مهرب فيها من رائحة اللحم البشري المحروق وغضب السماء. أنظر إلى ذراعي وهي تتساقط أرضاً بعد أن بَتَرَها الشَّبَقُ.

أدخل سوبرماركت جديداً، وأبحث عن أشخاص جميلين وسداسية علب سردين.

ماذا تتطلّب الوحدة أيضاً من حاجيات؟ ... سأتلو القائمة ...

بيض كثير .. في اليوم الأوّل .. في الصباح والعصر والمساء،

وفي اليوم الثاني والثالث، وكذلك الأخير ..

والتونا في كل يوم مع البيض أو بدونه .. وكذلك اللبن،

والكثير من القيء،

وسأقسمُ البطّيخةَ الرملية على أيّام الأسبوع ... في كل يوم هلال جديد، يبكي بذوراً.

لا شيء يهمّ .. ولا حتّى أن يكون البطّيخ مهندساً وراثياً، بحيث يخلو من البذور، وحتّى يعبق بالسّكّر والشجن..

أسير عبر أرض مكشوفة، شاسعة مفتوحة، لا مهرب فيها من الوجود .. فالبكتيريا ترتع بين جبيني وآخر قبلة.

أدخل سوبرماركت جديداً، وأبحث عن شركاء بدائيين افتراضيين للفراش الريفي .. أو للسّجّادة الأوروبية المهترئة ... وسمّ فئران ..

ماذا تتطلّب الوحدة أيضاً من حاجيات؟ ... سأتلو القائمة ...

سأدسّ سمّ الفئران في كل مكان، وسأطرد القطط، إن هي لم تتناول سمّ الفئران،

وسأشتري المبيدات الممكنة كافّة للكائنات، والكثير من الأسيد الذي يُذيب الأنسجةَ،

وسأقسم السّمّ الذكي هذا على أيّام الأسبوع .. في كل يوم قافلة جديدة من ضحايا الخطيئة.

لا شيء مهمّ .. ولا أريد أن يشاركَني كائن خفّة العَدَم ..

١٣) ماري

(أيلول .. ١٩٨٢).

لا أحدَ يعرف كيف كانت تحصل ماري على مُونَتِهَا من الكحل العربي الأسود الحالك، وكأنه كان يسافر إليها بطريقة مسحورة ما، عبر درب حرير خاصّ به، وخصيصاً كي يكون باستطاعة ماري أن تُكحِّلَ عَينَيْها، أو بالأحرى ترسم حدوداً سوداء حولهما، لترسخ خلاصة معنى القسوة والجمال الخالصين، والقليل من الشّرّ المُستتر عندما يلتقيان معاً، كان السواد لدى ماري مكثّفاً، وكأنه صُنع هو الآخر خصيصاً لها، حيث إنه خلافاً لملابسها دائمة السواد أو الداكنة التي لا يكاد المرء يُميّزها عن الأسود لشدّة ظُلمتها ..كانت تطلي شَعْرها بصبغة سوداء غريبة بخلطة سرّيّة، لا تكلح أبداً، بحيث لم تظهرْ لماري يوماً شَعْرَة بيضاء واحد في العَلَن، على الرغم من تجاوُزها الثانية والسبعين في ذلك العام الملعون ١٩٨٢. اعتادت ماري أن تضع الحكلَ داخل قارورة نحاسية أثرية صغيرة جداً، لا تكاد تتّسع لخمسين ملمتراً لإكمال المشهدية الدراماتيكية، ثمّ تبحث عن القضيب الفولاذي الدقيق الخاصّ الذي يُؤخَذ عبره القليل من سائل الكُحل، ليُرسَم بعدها حول العينَيْن، ولكنها في كل مرّة كانت تتذكّر أن ذاك القضيب هو بالأحرى ضائعٌ منذ دهر، وهي لا تتذكّر حتّى كيف يُستعمَل، وما الشعور في أثناء استعماله، إلخ إلخ .. فكانت تلجأ أحياناً لقطن الأذنَيْنْ المُثبت بعود خشبية، أو بلاستيكية، لتكتشفَ بعدها أن أنسجة القطن هذه قد تسرّبتْ دخل العين مُسبّبة احمرارها وتحسّسها، ولتصلَ في النهاية إلى

حلّ عملي، يتمثّل باستخدام الدبابيس السوداء هي أيضاً، والتي تُلملم أشلاء شَعرها المتهاوي لدهن الكحل حول عينَيْها، لتستخدمها بعدها في تثبيت شَعرها، وهكذا دواليك، فالسواد حول العين لا يفرق عن السواد على الشَّعْر، أو فوق الحاجب ...

كان العالم يتهاوى خارج البيت، وكأن يوم القيامة المنتظَر حلّ أخيراً .. بدأت أخبار صبرا وشاتيلا تتسرّب، ورائحة الموت في المكانَيْن تسافر من بيروت باتّجاه البحر، وتقطع رأس الناقورة، ثمّ تتّجه جنوباً، ومن ثمّ شرقاً إلى الناصرة، حيث كانت قد بدأت رائحة موت أخرى تتكوّن، ولكنْ، ببطء، على مهلها، كالطَّبْخ على نار هادئة .. طبخة تجهيزها طويلٌ، ويستغرق دهوراً .. كانت ماري أو التيتا ماري بسوادها هذا تطهو أعمال السِّحْر على مهلها في الغرفة السّرّيّة السوداء، من شدّة الشحبار والعفن، والتي تُسمّى "الأمبوب"، تلك التي كانت تقلي فيها السمكَ والباذنجانَ، وتُنظِّف فيها الكروشَ والفوارغَ ... وأموراً أخرى ...

لم يسمعْ أحدٌ من قبل بِزَوْج الكلمات "صبرا وشاتيلا"، ربمّا لم يسمعوها معاً، بمعنى أن صبرا كان مكاناً مستقلاً وحده، ويُذكَر وحده، وكذلك شاتيلا، ولكنْ، لا شك أن شاتيلا وحدها كانت معروفة أكثر وأكثر شيوعاً .. لقد تعرّف الناس منذ السادس من حزيران (شهر المصائب والمِحَن والموت المفاجئ) على الكثير من أسماء المناطق في لبنان، وبيروت تحديداً، وخاصّة تلك التي يدخل إليها الجيش الإسرائيلي .. مثل بعبدا .. وعاليه .. وبرج البراجنة والمدينة الرياضية والأوزاعي وبئر الحسن وبرج حمّود والأشرفية .. وسيبحثون وسط دمارها عن ينابيع ماء، وطعام لبناني شهيّ، وعَرَق زحلاوي، وفَرَق دبكة لمختّثين، يتمايلون بمؤخّراتهم قرب شارب، يقف عليه النسر، كما يقولون ... ولكن الثنائي "صبرا وشاتيلا" كانا جديدَيْن

وقتها، ليُصبحا بناءً ثقافياً مستقلاً، لا يمكن فَصْل شقّه الأوّل عن شقّه الآخر، كما لا يمكن تخيُّل أيّ حفلة شواء على خلفية أصوات فيروز وصباح ووديع الصافي، أو أي شيء يبعث على الطَّرَب النمطي والتّصوُّر المُبتذَل للبنان .. فبعد أن بدأت صور الجثث المتفسّخة والمنفوخة من الحَرّ تصل وتتناسل بسرعة، بدأ عصر جديد فيما يتعلّق بعلاقة الجمال بلبنان، وذلك على الرغم من فظاعة الصور التي كانت تصل على مضض من الحصار ونتائج القصف والحروب الصغيرة التي كانت تندلع هنا وهناك .. ولكن صورَ صبرا وشاتيلا فاقتْ هذا كله .. لأن تعابير مثل الاغتصاب الجماعي، ثمّ الذبح .. أو بقر بطون الحوامل، وإخراج الأجنّة منها، أو تفسّخ الجثث من شدّة حرارة أيلول الغادرة، وصور تفتّق البناطيل والقمصان عن أجساد الرجال صغار السّنّ، بسبب انتفاخ جثثهم بعد إعدامهم ... هذا العالم كله من الفظائع والعار البشري المجلجل أجهزَ على كل ما يمكن لصوت فيروز أن يضيف .. حتّى إن ماري التي كانت تبكي طيلة الوقت على أخوتها وأقاربها الذين "تبخّروا" في بيروت، ولم تعدْ تسمع عنهم شيئاً، ولا حتّى عبر صوت إسرائيل من أورشليم القدس .. نسيتْهم، وكأن صبرا وشاتيلا هذا كان حَدَثاً في كوكب آخر غير كوكب لبنان، وخاصّة وهي لا تعلم أن هاتَيْن الكلمَتَيْن المجموعَتَيْن معاً، ستصبحان مُنتَجاً ثقافياً ولغوياً تلقائياً مثل .."ريّا وسكينة"، أو "مريم ومرني"، وهما أختان عانسَتَأن، كانتا تتلازمان كل واحدة كظلّ الأخرى في المآتم والأتراح أكثر من الأفراح .. خاصّة أن مصائب الغير كانت تذكّرهما، على ما يبدو، أن مشكلتهما مع العزوبية الأبدية تهونُ أمام مصائب الناس ...

لقد أطلّتْ ماري على مدار عشرات السنوات التي عاشتْها في هذا البيت، حيث انتقلتْ من أحياء الروم لأحياء الـ"كتلوك"، كما كانت تُسمّي المسيحيين الغربيين بتهكّم، على آلاف الجنازات والمظاهرات، وملاحقة

حَرَس الحدود للشّبّان الذين أصبحوا رجالاً بالغين، لا يحملون سوى حسرة العمر الذي انقضى دون أن يتغيّرَ شيء، أو يكافئَهم أحدٌ على جرأتهم هذه ... لكن رائحة الموت الغريبة ومصطلح مجزرة وقيظ أيلول وأخبار جنون سوسن حفيدتها ... "بنت الكتلوكية" كان غريباً عليها ... لم يصب الناس في ذاكرتها بالجنون هكذا فجأةً، لقد كانت تعرف أنهم يُولَدون مجانين أو عقلاء، كما لم تكنْ تعرف أن في بيروت أماكن تُسمّى هكذا .. ولسان حالها يقول : " من وين طلعولنا صبرا وشاتيلا هدول كمان؟! .. عَوَقِتْنَا ما كانوش، أنا عارفة شوه هالوقت هدا، هالدنيا بطّلَت لولاد المنيحين"، كانت وكأنها تنتظر شيئاً ما .. رجالها الذين لن يعودوا، لن يزوروها بعد وهم في طريق عودتهم من دكّان الحلاقة الذي يقبع عنيداً أسفل الدرج، أو قططها اللاتي اختبأنَ بعد أن شَعَرنَ بخطر داهم .. وداكن كالكحل الذي بدأ يتحبّب على طرف جفنها .. كانت ماري مصابة بهَوَس غريب، تجدر قراءته بلغة ما بعد حداثية .. يتمثّل برغبتها في أن يَحلِقَ الرجال جميعهم في حياتها شعورهم بوتيرة عالية .. وبواقع كلّ أسبوعَيْن على الأقلّ .. وحتّى أحفادها من الذُّكُور الآخذين بالتناقص أو الاختفاء عن حيّز وجودها، إمّا بسبب الهجرة، أو لأنهم لسبب ما لم يتصالحوا بعد مع ذُكُورتهم .. الاجتماعية، على الأقلّ ..

" أنا عارفة شو موضة تطويل الشعر هاي عند الشباب"

"الرجال بكونش رجال غير ما يحلق كل جمعة".

وكأنها مصابة بهَوَس جنسي بشَعْر الرجال .. أو بالأحرى اختفائه تماماً .. ما يُرشِّحها في يومنا هذا لتُصبح إحدى روّاد نوادي الهَوَس الجنسي المتخصّصة وفق المواضيع في أوروبا .. أما الرجال من حولها، فقد كانوا بحالة تناقص دائم ابتداء من زوجها الذي ذاب كالشمعة بجيل مبكرة نسبياً

في عام ١٩٧١ كما ادّعت .."انمقت حظيط على أديب عشان رحل" .. مروراً بأولادها الذين هاجروا، وأخوتها الذين هُجِّروا عام ١٩٤٨ ..

ولكنّ شيئاً ما لَفَتَ نَظَرَهَا في صور الحرب في لبنان بالأمس، والتي تحوّلت إلى صور مجزرة ... لقد كان معظم الرجال في ذلك العام والأعوام التي سَبَقَتْ يتبعون موضة الشَّعْر الطويل الذي يصل حتّى أكتافهم، ويلامسها، باستثناء أصحاب الجثث المتكوّمة فوق بعضها، والمنفوخة بفعل الحرارة .. فقد كانوا بشَعْر قصير .. كما تحبّ.

جاء حبيب ..

- شو حَلَقِتْ؟ آه، هيك بيِّن وجَّك ... وأميل وينتا ناوي يحلِق؟

- بعرفش.

- مالك مهموم، الله يقطع البنات وخلفتهن .. هو بيجيب آخرة الرجّال غير بناتو.

- يمّا مش ناقصكْ أنا ... اسّا بطلع ... تعمليلنا قهوة.

- الله يقطع القهوة ... شو إنت بدّك تقتلْ حالَكْ بالقهوة والدخان، أيّاني فايتة أحضر لعزومة الجمعية، خلّيك هون إسّا بسخّنلَك القهوة.

- بتعرفي إني بحبهاش مسخّنة، عندك جريدة ... شو صاير بلبنان؟

- أبوك ترجّاني نْهِجْ علبنان مع العالم اللي هجّتْ من حيفا مع دار خالكْ، كان ’سا كانوا مدبّحينّا.

- يمّا ما إنت عارفة انهن أعطوا المسيحية جنسيات .. عن شو بتحكي؟

تدافعت النساء بالأسود إلى زيارة الجمعية، اخترقنَ الشوارع والاختصارات الموصلة من حارة الروم البعيدة وحارة الميدان القريبة جداً، وكذلك الحيّ الشرقي من المدينة نحو مقرّ الزيارة ... كانت قوافل السواد هي نفسها، نساء يتثاقلنَ في مشيتهنّ في الشارع، وقد انصبّت الدهون بأشكال عجيبة في مؤخّراتهنّ، فمع أنكَ كنتَ تشاهد مجموعة نساء، تمشينَ الهويناء في الشارع العام إلا أن الأمر كان يبدو مثل سرب غربان، يخرج من مقبرة بعد الانتهاء من دَفْن ميت، أو جماعة نساء في طريقهنّ من أو إلى جنازة، وليس زيارة خيرية ... ولكن الفرق لم يكن بهذه الجوهرية .. فالأهم هو القيام بالشيء ... كانت أسراب النساء هذه تتثاقل في الشارع الرئيس والشوارع المحيطة، في الأحوال جميعها، وبكل ثمن، في أيّام الإضرابات، والمظاهرات وحَرْق الإطارات والمناسبات العامّة والأعياد وعيد الاستقلال الإسرائيلي وعيد الغفران، في نهاية الأسبوع وبدايته، وحتّى في وسطه، وخاصّة في أيّام الأربعاء، حيث يعمل الأشخاص نصف يوم، وحتّى في ذلك اليوم القائظ من أيلول، حيث بدأ التّوتّر الناجم عن أخبار المجزرة يكتنف الجوّ، لم تتوانَ أسراب الغربان عن التّقدّم نحو فتوحاتها ... كانت تلك الطوائف من المخلوقات تتقدّم، وكأنها ذاهبة لتجهيز سِحْر ما ... سِحْر يُغيّر مسارَ حياة الأشخاص ...سِحْر لا تفقه تجهيزَه سوى الأرامل والعوانس الغاضبات، والأمّهات اللواتي هجرهنّ أولادهنّ غرباً، ولم يعودوا أبداً، والأمّهات اللواتي مات أبنائهنّ قبلهنّ في عزّ الشباب، فامتلأنَ بالقدرات السِّحْرِيّة الجاهزة للانتقام ممّنْ لم يمتْ ...

تقدّمت النساء بالأسود من جهة الأحياء الشرقية ذات الأغلبية الإسلامية نحو الغرب، بينما تقاطعت طريقهنّ مع جماعة نساء بألوان زاهية مُوَرّدة، تُميّز الفلسطينيات من المناطق كانت تلك النسوة تلطمنَ

وجوههنّ بشدّة على أقارب لاجئين من محيط الناصرة، كانوا غالباً قد قضوا ذَبْحاً في المجزرة ...

وَصَلَتْ معظم النسوة إلى زيارة الجمعية النسائية الخيرية، وكانت معظمهنّ تعانينَ بشكل مزمن من داء السّكّري من النوع ٢، أي المكتَسَب، وغير الوراثي، ولكنْ، ومع ذلك، فقد كانت معظم التضييفات مليئة بالسّكّر، كأنها بالفعل حفلة انتحار جماعي، وذلك بالتأكيد بعد طقس تحضير السِّحْر أو جمع السِّحْر ... فلنقل السّحورة ...

لم يكن القاسم المشترك الأعظم للتضييفات هو السّكّر القاتل في هذه الحالة فقط، بل الجلاتين أيضاً، ذلك المكوّن الذي يساعد المكوّنات الأخرى في طَبَق الحلوى من التمازج، وتشكيل ما يشبه حالة مقرّزة ما بين السائل والصلب، وهكذا تدافعت أطباق الحلوى ... كل عائلة وحدها، أوّلاً، أطباق الجلو الأحمر والأخضر، والتي تتوه فيها كرتا عنب وشريحة موز بالمعدّل، ثمّ يأتي دور الحليب المحلّى بحالته الجيلاتينية أيضاً مع السّكّر المُذاب بالماء ونبتة العطرة والجوز المهروس، ثمّ جاء دور مَغلي القرفة بالأرز، وهو عبارة عن الفقرة الأخيرة في برنامج التضييفات ... قبل القهوة طبعاً، وذلك دون أن تبدأ السّيّدة رفقا، والمُلقَّبة بالريّسة، أي رئيسة الجمعية، بتلاوة برنامج عمل الاجتماع، حيث لم تُعطِها أيّ ثرثارة من الحاضرات فرصة التّفوّه بكلمة واحدة، فمع كلّ طبق يحضر، كانت تحضر معه الأحاديث والتّقوّلات والأكاذيب ووصفات الحلويات المختلفة المتشابهة .. مَنْ سيخطب مَنْ؟ ومَنْ تبحث لابنها عن عروس مؤدّبة وموظّفة في الوقت ذاته، وأيضاً بنت عيلة ... جميلة ... عاقلة ..

تقدّمت ماري وهي تحمل صينية المَغلي بالأرز، تتبعها صديقتها التي

كانت تفضِّل دائماً تجاهلَ الحدود الفاصلة بين دَور الصديقة ودَور الخادمة ... رنّ جَرَسُ الباب، رافقَهُ طَرْقٌ عنيفٌ على الباب ...

سوسن، شو جابك؟! ...

ساد صمتٌ مريبٌ ومُربكٌ.

فِكِّيلي سْحُوراتك، ولي إنت ويّاها، فِكِّيلي، يلا ..

وانقضّت سوسن على شَعْر جدّتها الخفيف أصلاً، أو ما تبقّى منه، وأوقعتْها أرضاً، فتطايرت أطباق المَغلي، واختلطتْ ببقايا الجلو والكستر، ولكنّ طبقاً واحداً تطايرَ، وسافر مسافة لا بأس بها، ليستقرّ محتواه داخل كعكة الشّعر، أو الدائرة المجدلة على رأس الريّسة رفقا ... حيث بدا رأسها آنذاك كأنه عشٌّ، يمتلئ بالقيء ...

١٤) نتوء في حجر

-١-

وُلدتُ ها هنا على هذا النتوء المستريح بين سوء الفَهْم واللا - جدوى

-٢-

بين طوابير الحجارة المَقدسية أو النابلسية أو حجارة قباطية من أجل الدقّة، التي تنتظر دورها، كي يتمّ دقّها وتهشيمها إلى سكاكين.

-٣-

ما أبيضَ هذه الحجارة! ما أثقلَ بياضها!

-٤-

قد تستلّ أنتَ سكّيناً حجرياً حادّاً .. وتقطع شرياناً يُوصِل بين ما أنتَ عليه وما تراه عبر مرآة مَكسوّة بالفطريات.

-٥-

وُلدت ها هنا على هذا النتوء ..الكلسيّ .. المتعرّج بين الصحراء وبين ما ينبعث من البحر من رائحة مَرَض.

-٦-

عندما رتّب جدّي تلك الحجارةَ المَقدسيةَ أو النابلسيةَ أو حجارة قباطية من أجل الدقّة، لي. لم يقمْ بحساب المسافات البينية بمهارة.

-٧-

ما أبيضَ هذه الحجارة! ما أثقلَ بياضها!

-٨-

لم يضعْ جدّي الذي أحمل اسمَهُ عنوةً حساباً لما سيحدث وراء الأفق الممتدّ خلف كأس العَرَق الزحلاوي الذي تمّ تهريبه بوَعْي كامل مُوغِل في عناده عبر حدود، ستُوصَد إلى الأبد ...

-٩-

وهذه اللوزة الخضراء وزرة الملْح .. وشريحة الليمون وقلب الشومرة.

-١٠-

وها أنا كالنّتوء تفرزني الرطوبة على حجارة نابلس في كل يوم مشمس بالحرج من جديد.

-١١-

أسقط من حجر، ويتلقّفني حجر آخر، لم يثبّته جدّي بتراتب هندسي ... برؤية طويلة الأمد ..

-١٢-

لم يضعْ جدّي الذي أحمل اسمَهُ عنوة حساباً لما يُخبِّئه الدهر من لعنات ما بعد الحقول الممتدّة وراء كَرَكَرة مياه الأرجيلة التي تمّ تسريب تنباكها، بتخطيط لا ينثني عنقه، عبر حدود وَهْمية بين الأمل والسخرية ..

-١٣-

لا يخفى على أحد ممّنْ ماتوا جميعاً بأن كل ما تمّ تخطيطه بليونة قاتلة، قد احتلّه الخَلَل .. خَلَل، لم يعدْ أحدٌ قادراً حتّى على حصره .. ولا حتّى أنا ..

-١٤-

ولا حتّى أنا .. أنا الذي كنتُ أطرّز أيّامي الباقية على ثوب فلسطيني مُفبرَك .. كل يوم من الواحدة ليلاً، وحتّى السابعة صباحاً.

-١٥-

بين طوابير الحجارة المَقدسية أو النابلسية أو حجارة قباطية من أجل الدقّة، التي تنتظر دورها، كي يتمّ دقّها، وتهشيمها إلى سكاكين، تحيل ظلّي إلى أشلاء من الجان اللحوحة.

-١٦-

قد تستلّ أنتَ سيفاً مصنوعاً من هشيم أحجار مَقدسية، أصبحت هي بيتي، وتغرسه في صدر، كَشَفَ نفسه عن قَصْد، وتَقْسمُهُ، ليصبح ما أنتَ عليه من حقيقة، وما ستظهر عليه جثّتُكَ بعد نسيانها في قاع سفينةٍ هاربةٍ من نزهةٍ عائليةٍ مُربكَةٍ.

-١٧-

وُلدتُ قبل ساعات، لا أعرف عددها، على هذا الحجر الكلسيّ الذي اخترقَ المرجَ، وأصبح نتوءاً، وقسّمَ الأرضَ، وزَرَعَ على منحدراتها صنوبرةً غريبةً، لا تكفي لإطعام عصافير، وُلدَتْ من لا شيء سوى من لعنة عشق الرّبّ لهذه السماء ..

-١٨-

ثمّة مَنْ أفرزني على مسطح رطب، يمتلئ بطحالب، لا بحر لها سوى ظلّ جسدي العاري، أتحسّس شَعري المسترسل حتّى كتفَي، والشعيرات الناعمة العشبية التي تمتدّ من حلماتي نحو عانتي، أصنعُ دوائرَ حول صرّتي، أتحسّس الشَّعر الذي يستريحُ الآن عند استدارات فخذَيّ، نحو ركبَتَيّ ..

-١٩-

هذا أنا ... هذا أنفي، هذه جفوني، هذا فمي، هكذا تبدو أصابعي .. رجولية وناعمة في آنٍ، هذا حاجبي الكَثّ، وذاك ما يَلعقُ أسفلَ أذني، هذه خاصرتي، ومن هنا تسيل الدموع، ويسيل المني إليها، هذا قضيبي وخصيَتي الأولى .. هذا شرجي وخصيتي الثانية، هذا هو اللعاب السائل نحو المسطح الكلسيّ الأملس .. هذه لحيتي الخفيفة .. سأحلقُها بسكّين الحجر المَقدسي .. فقد تتحقّق نبوءة أكوام الحجارة المتراكمة بيني وبين السكينة ..

-٢٠-

عندما رتّب جدّي الذي أحمل اسمَهُ عنوة تلك الأحجارَ المَقدسيةَ البيضاء أو النابلسية .. حجارة قباطية من أجل الدقّة (يا لبياض هذه الحجارة! ما أثقل بياضها!) أغفل حساب الفراغات الدقيقة بين حجر وآخر، ولم يخفَ على أحد ممّنْ ماتوا جميعاً بخفّة مُلفتة، بأن كلّ ما تمّ تخطيطه بليونة قاتلة قد احتلّه الخَلَل .. خَلَل، لم يعدْ أحدٌ قادراً حتّى على حصره .. ولا حتّى ما كنتُهُ أنا ..

-٢١-

ولا حتّى ما كنتُهُ أنا قبل الأربعين .. أنا الذي كنتُ أطرّز أيّامي الباقية على ثوب فلسطيني مُفبرَك .. كل يوم من الواحدة ليلاً، وحتّى السابعة صباحاً على ضوء سيجارة ...

١٥) يولا لا ...

"ستصبح بعد عشرين عاماً وحيداً كالمجذومين، تتجوّل في شوارع بلدتك المهجورة، تبحث عن أير معفّن تمصّه .. أيّ أير، ذلك كله عَبَثٌ، ففي تعابير، يختلط فيها القَرَفُ والشفقة .. لن يرضى أحدٌ الاقترابَ منك، حتّى التّبوّل عليك".

هل تتحقّق أخيراً نبوءة سمير عشيق أميل الأول من معهد الهندسة التطبيقية في التخنيون - حيفا؟؟

فقد تلقّى في ذلك اليوم الغائم والماطر جزئياً رسالة "واتس أب" .. يستهلها الكاتب المتّصل من رَقْم غير معروف، وبثقة عمياء بكلمة:

- وينك؟

وكأن أميل يعرفه منذ دهر، وعليه فقط الإجابة:

- مين إنت؟

- ولك، يا شرموطة، مش عارفتيني، ولا عندك حدا بنيكك.

شَعَرَ أميل بالإثارة الغريبة، لا لشيء إلا لأن المتّصل تعامل معه، وكأنه مخلوق جنسي، لا يصمت، ولا يكلّ .. مع أنه صَمَتَ طويلاً، وخاصّة في الأسابيع الأخيرة، صَمَتَ دون أن يشعرَ بذلك حتّى .. نوع من الصمت المريح، فالأيّام تمضي بشكل عادي ومُحتمَل دون حزن يُذكَر، ودون أرق،

ودون نوبات فزع، ودون خوف كبير (باستثناء لحظة دخول السرير، ولثوان معدودة فقط)، فظنّ المتّصل أنه في حالة شَبَق وفُحْش دائمَيْن، كان جميلاً، وإن كان غير واقعيّ، وظنّه أنه يديرُ ليل نهار حفلات صاخبةً للجنس الجماعي في بيت العائلة المنهارة، لم يكن واقعياً أيضاً، فتنظيم حفل جنس جماعي في أيّامنا هذه أصعب وأعقد من تنظيم جنازة أو أربعين حتّى وخاصّة في هذه المدينة، حيث يتحمّس الأشخاص المفترَضُون لهذه الحفلة كفكرة، ولكنهم ينسحبون قبل الحفل الشّرّير بساعات عن طريق الاختفاء ببساطة شديدة، أو التحجّج بكوارث عائلية، لا تحدث أصلاً، ليبقى المنظّم بالانتظار وحده، ثمّ يستمني، وينام، أو يجد نفسه يتفرّج على شخصَيْن يتنايكان على سجّادته دون إيلاء وجوده أيّ اهتمام ..

- أنا عامر اللي كِنتْ عندَك قبل شهرين.

- طيّب، وأنا شو عرفني؟

- شو بتعمل؟

- ولا إشي.

- عندك حدا؟

- لا .. مين بدّو يكون في

- بدّي آجي اغتصبَكْ

لم يُصدَم أميل من الفعل، أو من النية الحقيقية المبطّنة فيه، بل أُعجب بالفكرة، والمباشرة التي طُرحت فيها، كما أُعجب أيضاً بوقاحة عامر .. المغتصب العتيد، وخاصّة أن على المغتصب (بفَتْح الصاد) أن يوافق على أن يتمّ اغتصابه في بيته، كشرط لحدوث الفعل أيضاً، حيث

يفقد الفعلُ مضمونَه السياسي جرّاء الموافقة على أن يحافظَ على شيء ما من فحواه المعنوية.

- كيف يعني؟

- شو كيف يعني؟! وعحساب رايحة وجاي وقارية ومشرمطة بأوروبا تشبعانة.

- أوّلا احكي معي بطريقة محترمة أكتر .. وبصيغة المذكّر.

- ولك انت بدك مذكّر يضل يطقك كل الليل لتنك تتفلخي ... عندك حبل ولزيق عريض؟

ثمّ جاء الشرح المفصّل لمكوّنات الاغتصاب التوافقي من قِبَل عامر، وكأنه قضى حياته في نوادي برلين وباريس الليلية الأكثر فحشاً وتكلّفاً وعنفاً .. وليس بين شوالات الإسمنت والجبص ودلاء الدهان وفتات القصارة المنهارة .. وكأنه لا يقضي نهاره من الخامسة صباحاً على الطُّرُقات، وفي الشاحنات، ليعود إلى بيته مقتولاً وأشدّ سواداً وخشونة .. هذا إن لم يكنْ قد سَقَطَ من علو إلى جبّالة، فَرَمَتْ جسمه، أو قُتل في تصادم جبهوي في المساء، من شدّة التعب .. وحتّى إن كان سيسافر في إجازة .. أقصاها طابا أو شرم أو عمان أو تركيا في الأعياد وإجازة الصيف ... وهذا ما زاد وعزّز من إثارة أميل .. وتغيير رأيه في كلمة اغتصاب، عندما يحدث الأخير في ظروف توافقية .. إنها الإثارة النابعة من تأمّل الفجوة القائمة لدى الشخص نفسه بين الجهل والتّخلّف والضآلة الاجتماعية وبين إلمامه الدقيق بفنون الجنس وأسراره وفنون إنتاج المتعة وبدائلها المتنوّعة المتاحة ...

"سأربط يَدَكَ، ولن أربطَ رجلَيْكَ، لأنني بحاجة لهما في عملية الولوج والفتْح والإغلاق .. باختصار، بحاجة لليُونَتِهما وحُرّيّة حركتهما، كما سألصق

فمَكَ بلاصقات نايلون، كي لا تصرخ وتُسمع الحي كلّه ... سأحضر معي حبلاً مطّاطياً، وسأجلدكَ من مؤخّرتكَ حتّى تصبح حمراء، وعندما يصبح لونها كحبّة البندورة الموشكة على التعفّن، سوف أبدأ بألعاب الشرج، سأُحضر معي قضيباً اصطناعياً، وبعد الأغراض الأخرى، وسوف أُدخلُها في شرجكَ وأنت تتلوّى من الألم/اللّذّة، وأنا أراقبكَ، ثمّ سأعطيكَ استراحة ... لكنْ، قبل ذلك، سوف أسحبكَ من شعركَ وأنت منكس الرأس، وتجلس القرفصاء على الأرض، ثمّ سأقف فوقكَ، بما أنني سيّدكَ، وأنت عبدي ومأموري، وسأُشعل سيجارة، وفي هذه الأثناء، وأنا أمجّ سيجارتي ببطء كالقيصر، عليكَ أن تَلعقَ لي رجلي، أصبعاً أصبعاً وما بينهما، وخاصّة إبهامي العظيم والكبير، عليكَ أن تملأ رجلي بلعابكَ، ثمّ سأنهي سيجارتي، سأُطفئها عليكَ .. على ظهركَ .. ثمّ سأدوس عليكَ بكلتَي رجلَي .. ثمّ سأتبوّل عليكَ، في هذه الحالة، سيكون بولي ساخناً .. ساخناً جداً، وستشعر بلذّة، لا يمكن وَصْفها لمَنْ لم يجرّبها من قبل ... ثمّ وبعد أن تكونَ قد تخمّرتْ ونَضَجَتْ، وأصبح جسدكَ منهكاً ومُثاراً في آن، وجاهزاً للاغتصاب .. سوف أغتصبكَ بكلّ ما أوتيتُ من شرّ وعنف ودهاء، ومن جميع الاتّجاهات والزوايا، وخاصّة وأنت متكوّر كالجنين، أو فلنقل كالقطّة عندما تنام ليلاً، سوف أغتصبكَ بقوّة، وسوف أقذف ثلاث مرّات متتالية، وفي هذه الأثناء، سوف أشدّكَ من قضيبكَ وخصيَتَيْكَ حتّى تجنّ من الألم والرغبة .. سأقذف مرّة في فمكَ، ومرّة على ظهركَ، ومرّة داخلكَ .. سأملؤكَ بسائلي، يا كلبتي ...".

استهوى تناسل التفاصيل وسَرْدها أميل، تخيّل نفسه في بعض الحالات التي وُصفَتْ، ولكنه لم يستطع تخيُّل نفسه يحتمل أن تُطفأ سيجارة على جسده، فإذا كانت الحركات السابقة المذكورة هي مجرّد لعبة لمطّ حدود الاحتمال، وتقمّص أدوار الإذلال والتنكيل، فهي، ومع هذا كله لا تثقب

جسد الوجود، وبالتالي المعرفة، ولكن عقب السيجارة قد يفعل ذلك، فهو لا يُشكّل مجرّد لعبة، يمكن التراجع عنها، والعودة إلى الأدوار السابقة، بل ندبة، قد تقلب الأدوار نهائياً ..كما لم تستهوِ أميلَ ألعابُ لَعْق الرجلَيْن .. فقد تكونان قذرَتَيْن، ولم يتحمّس لمسألة التّبوّل، وخاصّة أنه في حالة فقدان تامّ للسيطرة على ما يحدث، ولا يمكنه إيقاف المُغتصِب عن الإيغال في غيّه، فهو قد يذهب إلى أبعد الحدود في لَعِبِ دوره، وبالتالي فقد يتبرّز ببساطة عليه، وهو أمر لا يُطاق، وقد يحوِّل اللعبة كلها إلى كابوس، يعبق برائحة الرصاص المهدرَج.

ما علقَ في رأس أميل في تلك اللحظة هو الوَجَعُ الناتج عن فقدان السيطرة، وليس كل نوع من أنواع الوَجَع، إنه الوَجَع اللذيذ الذي يتفجّر في نقطة معيّنة، هي كالحاجز الأحمر المتوهّج، والذي سرعان ما يتحوّل إلى خدر جميل مشبَع باللّذّة، إنه الوَجَع الذي يشعر المرء فيه أن فقاعات الهواء والمرارة في رأسه تفتّقتْ وهو يسمع ذلك بأذنه ... يحدث ذلك عادة عندما يلجُ قضيبٌ كبيرٌ وأملسُ الشرجَ، فثمّة حاجزٌ جهنّمي من الوَجَع، عليكَ تجاوُزه، وعدم التراجع أو الانكسار، وبعد تجاوُز هذا الحاجز، وفي حال كان صاحب القضيب متمرّساً ومحترفاً فيما يفعله، يتحوّل الوَجَع بعد هذه النقطة إلى لذّة، لا يمكن إعرابها، وإلى سِحْر يُفكّكُ كافّة عقد الماضي اللزجة ... ولو لحين. كان أميل يأمل بذلك أن تحمل تجربة الاغتصاب الكثير من الوَجَع اللذيذ الذي يزهر سماوات جديدة، والقليل من الوَجَع المعتم، السمج، اللانهائي ... ذلك الوَجَع الذي يلقي بكَ في بئر معتمة، يتأجّل قاعها كل مرّة من جديد .. وَجَع شبيه بذلك الذي كان يشعر به عندما كان يشارك سوسن غرفتها في صغره، حيث كانت تبكي وتئنّ وتصرخ طيلة الليل دون أن يفهم أحدٌ لماذا.

ماشي، تعال، اغتصبني!

لم يزرْ عامر أميلاً قبل ذلك، فقد كان اللقاء العابر السابق، والذي جرى فيه تبادُل السوائل فقط في أحد الأحراش الصهيونية المحيطة في المدينة، لذا كان عليه أن يجهّز البيتَ الغارقَ في الفوضى الخلاقة بسرعة، وأن يحاول رؤيتَه بعينَي شخص قادم لاغتصابه، ولكنْ، وبما أن الفقرات التي تلاها عامر عديدة ومركّبة، فقد فكّر أميل بسرعة أن البيت يعجّ بالصناديق، وبحاجيات أمّه وملابسها وإكسسواراتها، وأن عملية الاغتصاب الواعدة تلك تتطلّب مساحة مفتوحة أكثر، يسهل التّنقّل فيها، ففي حال أراد عامر تطبيق كل ما توعّد فيه بالفعل، فقد يُصاب أميل، أو حتّى يُقتَل، لمجرّد أنه نام أو صُفع بالقوّة، وهبط على إكسسوار حادّ الأطراف، لا قيمة مادية له، حيث كانت الماما تعشق الذوق الجميل، ولكنْ، بما أن مواردها المادية كانت تتقلّص مع العمر، فقد كانت تكتفي بشراء الإكسسوارات الجميلة الخالية من أيّ قيمة مادية.

فَتَحَ أميلُ البابَ لإخراج بعض الأغراض، وذلك لتهيئة مسرح جريمة الاغتصاب، وكأن الساحة الخارجية والحديقة المَنسية في الخارج، بسبب ذلك الشتاء الطويل، ينقصهما المزيد من الكراكيب، ولكنه لم يتوقّع ما شاهدَه بالفعل، وكأنه كان يهذي ساعتها، فقد وَجَدَ أطفالاً، يبدو من شكلهم أنهم من الهند أو سريلانكا يتخاطفون الحاجيات، واحدهم من الآخر، كما كانت إحدى البنات الصغيرات تحاول السير بحذاء أمّي الفضّي ذي الكعب العالي جداً، وهي تحمل حقيبتَها الأنيقة التي اشترتْها من القاهرة عندما كنّا نسافر بالباص لهناك كل عام، أما الأم الهندية، فقد كانت تسحب الفساتين القصيرة من بين طبقات القماش، تنظر إليها بعدم إعجاب، تزمّ شَفَتَيْها دلالة على عدم الرضى، ثمّ تلقي بالفستان جانباً

نحو كومة، يبدو أن مصيرها مأساوي، كما كانت إحدى النسوة تسحب الفولارات والشالات من بين الأكوام، تضعها على رأسها، أو تربطها على معصمها، وتلقي بها جانباً، أو تضعها في كيس، ولكنْ، عندما أخرجت غطاء الرأس الدانيل الأسود الذي كانت أمّي تضعُه على رأسها في الكنيسة في أثناء الصلاة، قبل أن تبطُل هذه العادة في العقد الأخير من القرن العشرين، أراد أميل أن يهبّ لنجدة قطعة القماش الميثولوجية هذه، ولكنه تراجع، وخاف أن يُحدِثَ ذلك هرجاً ومرجاً قبل قدوم عامر، لكن القمّة بحقّ كانت حين تناولتْ بنتٌ ترتدي جاكيت سوسن الأزرق السماوي والأصفر الفاقع الذي يلائم بالفعل فتاة بسنّ البنت ألبوم الصور العائلية المركزي من طفولتنا المبكرة، والذي نُسي لسبب ما في الخارج، بسبب إهمال جانيت، حيث أخذت البنت تفسخ الألبوم السبعيني بطبقة النايلون الهشّ والورق المقوّى المهترئ، وكأنها تفسّخ دجاجة كاملة، أو ضلغ خروف، وفجأة سمع أميل صراخاً قادماً من بعيد، صار يقترب، وتتّضح ملامح مصدره، كان هؤلاء جماعة من عمّال الحدائق والبنّائين وعاملات التنظيف من المحليين، جاءت لتُهاجم الغرباءَ، وتطردهم من هناك، بحجّة أن تلك الغنيمة لهم، وتربطهم بأصحابها صلات تاريخية، وهم بالتالي أولى بها ... وهكذا وفي خضام العراك .. تسرّب عامر من بين الجموع الغاضب، حيث بدا ذلك كله طبيعياً للغاية.

جاءت عملية الربط وفقدان السيطرة وما إلى ذلك من فقرات مغايرة عمّا تخيّل أميل حين وافقَ على المغامرة، حتّى إنها كانت مخيّبة للآمال في أغلب الأحيان، وذلك في حال كان بالإمكان ربط مثل هذه الفعاليات البشرية المظلمة ... بالأمل أصلاً. فقد كانت عملية الربط عنيفة، حيث كان الارتباك بادياً على عامر وتحرّكاته، فقد كان عصبياً ومتوتّراً، وكأنه يخشى أن ينسى تفصيلة ممّا وَعَدَ به .... حتّى الألقاب التي كان يُلقيها

على أميل متتالية لإذلاله ضمن اللعبة .. مثل جاريتي وقحبتي وشرموطتي، والتي تقتضي التأنيث في مثل هذه الوضعيات لتعميق الإهانة والتراتبية الجندرية، كان يردّدها وكأنه صبيّ ينضج بسرعة، وهو فرح بما تعلّم اليوم من بذاءات، ولكن عامراً لم يكن يردّد تلك الأوصاف بفرح، بل بتوتّر طفولي ... أما الجَلْد على المؤخّرة، فقد كان مؤلماً وجافاً، ولا يحيل إلى لذّة تُذكَر، فلم يكنْ ذلك الوَجَع اللذيذ الذي اعتقده، ولا الوَجَع على طريقة سوسن، كان وَجَعاً مملاً، لا حياة فيه، ولا يجعل الضحية المفترَضة تنتظر بفارغ الصبر ما سيأتي، فقد أخذ أميل يتأمّل أقراص الصنّارة الملقية على المنضدة المقابلة له، والتي تبقّت من رائحة والدته وجدّته ماري، ويسأل نفسه شاغلاً إيّاها ما سرّ هذه الحياكة؟ ولماذا لم يحاول تعلّمها مرّة؟

وبما أن عامراً قد شَعَرَ بالملل الذي يعتري جسد أميل، وبالألم الفائض عن الحاجة، فقد حاول أن يرفعَ سقف الإيروتيكا، إن وُجدت أصلاً، فقال لأميل ... هل ترين كلّ كُتُب المثقّفين هذه الملقاة في كل مكان؟ هي كلّها على أيري ... سوف ألفّها وأحشرُها في مؤخّرتكَ ... صار أميل يتخيّل كُتُبَ إدوارد سعيد ودريدا المغبرة مَحشوّة داخله .. فلم تُعجبه الفكرة، كما أنه لم يشعرْ بالإهانة أو بالإذلال ... كان ينتظر شيئاً واحداً .. أن يتخطّى عامر كل الفقرات المجدولة لذلك اليوم الأغبر، وأن يلجَه ببساطة، ويقذف (لا يهمّ أين وكيف) ويذهب إلى بيتهم، ويترك له ذاكرة وَجَع لذيذ، على الأقلّ ... كان لا يزال يُعوّل على وَجَع الإيلاج اللذيذ ... وبالفعل، أخذ يتلوّى كالشبقة الجاهزة للإيلاج، والتي ستموت في حال لم يحدث ذلك، فأخذ أميل يهمس بتوسّل مزيّف لعامر أن يأتيه من شرجه، ما زاد من ارتباك عامر .. فاختفى انتصابه المتواضع أصلاً، وحاول حَشرَ قضيبه المرتخي داخل أميل بعنف يائس، ثمّ بعنف أقل .. في حين كان الانتصاب يختفي أكثر وأكثر ...

فكّني، خلينا نوخد استراحة

لكن الاستراحة طالتْ، وغادر عامر بعد أن تظاهر بأن زوجتَه اتّصلت به، وأن ابنته الصغيرة نُقلَتْ إلى المستشفى بعد أن شربَتْ سائلاً لمسح الأرضيات ...

لم يتّضح لأميل شعوره الحقيقي لحظة مغادرة عامر وبعدها، كان الشعور مزيجاً من الخيبة على ولوج لم يحدثْ، ووَجَع فائض عن الحاجة، وفخر لا سبب لمعطيات ظاهرية، كتلك التي لدى أميل أن يشعرَ به، العمر، هذه الكراكيب والوحدة، هو الفخر بجسمه الذي تعرّف عليه أكثر وأكثر، في ذلك اللقاء، وبأنه لا يزال قادراً أن يختارَ شركاءه، ويلفظهم متى شاء ذلك، ذلك إضافة إلى قناعة جديدة، أخذت تُثبت نفسها رويداً رويداً لديه، ولكنها في الوقت ذاته قد تتفتّت فجأةً أيضاً، وخلال لحظة واحدة بأن الإيروتيكا في المُدُن الصغرى والمتوسّطة، يشوبها الكثير من الاعتبارات الأخرى، ما يجعلها عرجاء في كثير من الأحيان، فالمجهولية تبقى هشّة جداً، كما أن اتّفاق التواطؤ المتبادَل بين شركاء الفاحشة قد يُنتَهَك في أيّ لحظة عندما يشعر الأطراف أنهم ينتمون للدوائر الاجتماعية أو العائلية نفسها مثلاً دون أن يعرفوا ذلك من قبل، وأن الشعور بأن ثمّة أموراً كثيرة ومثيرة تفوتكَ في كل لحظة معطاة، هو وَهْم ..مجرّد وَهْم، في غالب الأحيان .. فأنتَ .. أي أميل، مصدر لحظتكَ المثيرة، وأنتَ مَنْ يُنتجها ...

مَسَحَ أميل السوائل المختلفة التي غطّتْ بَدَنَهُ الآخذ بالهرم، والمُلقى على طرف الأريكة ... تناول كتاب "الجهل" لميلان كونديرا، وبدأ قراءته من جديد.

١٦) نحو بلاد ... أبرد

تسير نملة على عنقي ... تقف عند نقطة معيّنة، قد تكون أكثر حلاوة من غيرها، ثمّ تلسعني بلؤم مُبيّت، تغار النملة الشرموطة منّي ... تغار من ذاك الشبح الزهري المؤخّرة وشائب العانة الذي لَثَمَ عنقي بعنف، وبَصَقَ عذابه في حلقي في الشاطئ، وهَرَبَ ...

وأنا أمشي .. أنا أمشي على قاذورات الأمس، وربّما قبله وقبله، على مرتع للديدان السوداء الدقيقة التي تنظّم وقفةً احتجاجية عند أسفل جدار فنائي على شحّ اللحم البشري الذي تساقط من أمعائي، ومع أمعائي، في الأيّام الكثيرة الأخيرة الراهنة المحتدمة الزاخرة المباركة العامرة ... بالقذارة..

***

يتهادى عنكبوت على معصمي، ذلك المُتخَم بالدماء الطازجة ودهاليز العمر الخائن، لا يلسعني العنكبوت .. هو لا يلسع ... أي العنكبوت .. إنه يلتهم شيئاً أو كائناً ما، وكأنه جان، يلعق العنكبوت فتاتَ المني عند مفصل أوردتي الذي نسيتُ أن أغسلَه، فأستيقظ فجراً، لأصرخَ من وَجَع المداعبة ...

وأنا أمشي .. أنا أمشي على مخلّفات كلاب سائبة في غرفة جلوسي، وخيالاتي وعطشي وارتوائي، أخطو بين قطعة خراء وقطعة خراء أخرى، أكثر قِدَماً، عليها قطنٌ أخضر اللون، حتّى إن رائحتَها غَابَتْ،

أو انفَلَتَتْ خارج نفسها، ثمّ انكَمَشَتْ وتجَمَّعَتْ في نقطة سوداء من ... يأس .. ربمّا.

***

وأنا أشاهد فيلم بورنو برازيلي على زجاج ببقع زيت، يجري صرصارٌ بنّيٌّ غامقٌ على قدمي عند الفخذ تحديداً، أعلاها قليلاً، لا أكاد ألحظ وجوده أصلاً، هو يجري من تحت ركام (أ) إلى بركة الصرف الصّحّي (ب) ... يسخر الصرصار منّي .. يتصرّف بوقاحة، وكأن البيت بيته، يعدّ جسدي ممرّاً بين ردم ودمار وبين جورة عميقة بلا قاعدة لمخلّفات آدمية ..

وأنا أمشي ..أنا أمشي على جزر بين بحار المياه العادمة، أبحث عن قطعة أرض جافة، نظيفة منسوبها الجرثومي راحل إلى الصفر، أكتب فيها نصاً، أستنشق ياسميناً، أُنصت للأذان في المغرب، أمضي بتصيّد نسمات باردة، لأعبّئها في قوارير الشجن ..

***

تُوقظُني أفعى رقطاء صغيرة من نومي، تلدغُني أسفل أذني، تزرع فيّ سمّاً جديداً في السوق، ولكنني لا أموت، أحكّ خصيَتَيّ، وأيري المنتصب دون مبرّر، فتتدافع بقعة من الماس الأحمر على الفرشة، تعود الأفعى إلى بيتها، تتركني غارقاً، أفكّر بسيجارة وقهوة وركوة متعفّنة ..

وأنا أمشي .. أمشي .. ماذا ينتظرني اليوم؟ صحراء شاسعة، ورمال تستغلّ العَرَق الذي يسيل من على ظهري، لتلتصقَ هناك، وتحجبَ جروحي، مياه مقطوعة، ستائر مائلة، خيوط عنكبوت في كل زاوية حادّة، كُتُبٌ لم يقرأها أحدٌ، كُتُبٌ مُهمَلةٌ، يوميات تسعينيةٌ، بدأ العُثُّ يأكلها، ذكريات مقصومة الظهر، صورة أخرى لأمّي عندما كانت فراشة،

تمثال جديد لأمّي عندما أصبحت فراشة، غبار، قَرَف، قاذورات، جثث مشطورة، أخرى متآكلة، صقر ينتظر خروجي من الكهف، ليلتقطني، ويفرّ نحو ديار ... أنظف.

***

تقف على شَعر لحيتي الكثيف ناموسةٌ، أو ربّما ذبابةٌ، أو كائنٌ أخضر بينهما، يلتهم الكائن العجيب ما تبقّى من فتات دم جفّ عند أطراف ذقني الأحمر أصلاً، أتأمّل في المرآة الصدئة أمامي، لا أرى شيئاً سوى أكياس وجيوب رمادية تحت عينَيْن بليدَتَيْن، أهمُّ بحلاقة ذقني، أفتح الحنفية أمامي ... تنبع المياه كمخلّفات البركان، من ثقب على بُعد نصف متر من قَدَمي ...

وأنا أتراجع وأتراجع وأتراجع ... تتقدّم بقعة الماء نحوي، شريحة الأرض هذه جفّتْ من مئة عام على صور وقصاصات جرائد ورسائل ندم وعظام حشرات وكائنات أخرى وسجلات خطايا ... تنفكّ هذه كلها عن الأرض عندما تلامسُها المياه، تصعد إلى السطح وتطفو، تتقدّم المياه نحوي، ومعها تلك النفايات المؤلمة كلها، تتقدّم المياه نحوي، وتغمر الغبار، القَرَف، القاذورات، الجثث المشطورة، الأخرى المتآكلة، بينما ينتظرني حصانٌ طائرٌ خارجاً، ليلتقطني ويفرَّ نحو بلاد ... أبرد.

١٧) جسد سلافيٌّ

بعد تسلّمها الدفعة الأولى من إيجار بيت العائلة في السالزيان، وذلك لسنة كاملة، قرّرتْ جانيت أن تحقّق حلمَها الرطبَ المؤجَّلَ، والذي عاهدتْ نفسها أن تُخرِجَهُ إلى حيِّز التنفيذ فوراً، فقد توجَّهتْ إلى مكتب السياحة المختصّ في حيفا لحَجْز رحلة منظّمة إلى "معسكرات الإبادة في بولونيا"، وأبرزها أوشفيتس – بركناو، على أنها فضّلتْ خيار الرحلة المنظّمة على الرحلة الفردية، كي تشعرَ بالأمان أكثر، وكي لا تضطرّ للسؤال والبحث وبَذْل جهد، فهي قد تجاوزتْ جيل الرّحّالة الصغار من الباحثين عن المغامرات بأيّ ثمن، ولكنها، من جهة أخرى، عَدّتْ مشاركتَها في رحلة منظّمة تقتصر على اليهود فقط، وغالباً من الناجين من المحارق النازية، أو أولادهم، أو أحفادهم، بمثابة مغامرة بحدّ ذاتها، وخاصّة أنه لم توافق أيّ من صديقاتها في جوقة الكنيسة مرافقتَها في الرحلة ... التي عُدّت مجنونة وكئيبة إلى حدّ كبير، ولا حتّى سليم خاصّة بعد الذي حصل بينهما ... كما لم ترغبْ جانيت بنَشْر الخبر في أوساط العائلة الموسّعة، أو ما تبقّى منها من مصابين بالألزهايمر والطَّرَش والرَّجَفَان ومتلازمة داون المتأخّرة، لسببَيْن: أوّلاً كي لا يتّهموها هي أيضاً بانفصام الشخصية كأختها سوسن، حيث أصبحت العائلة بمجملها موصومة بالداء، وكأن الآخرين معافون عقلياً ونَفْسياً وجَسَدياً تماماً، والسبب الآخر أنها لم ترغب أن يصل الخبر لسوسن في إقامتها القهرية في دار النقاهة النفسية وخاصّة أن جانيت كانت قد استولتْ على حصّة سوسن من الإيجار القليل أصلاً،

للقيام بالرحلة، لأنها باتتْ تشعر بشكل متعاظم ومتأصّل أنها دَفَعَتْ ثمناً كبيراً مقابل تمرّد أختها العقلي، وأنها غدت عانساً لهذا السبب، لأن العرسان خافوا الاقتراب منها، كي لا تُنجب لهم ذرّيّة منفصمة، وأنها تحمّلت كل ما سَمَحَتْ سوسن لنفسها بممارسته، بل على العكس، عملت جانيت جاهدةً في الحفاظ على شكل العائلة الاجتماعي اللائق بها حتّى بعد أن غاب الجميع عن البيت، وانفصلتْ هي وأميل، كلّ في شقّة، لقد تحمّلت صراخ سوسن وتنكيلها وعنفها النّفْسي والجسدي والأمور الغريبة وأحاديث السِّحْر والشعوذة الذي كانت تردّده في أوساط الطبقات الراقية والفئات المجتمعية التي تعدّ التّصرّفات الغريبة من الآخرين، بحضورها، بمثابة انتهاكاً لتوازن الوقار الهشّ الذي تحاول حمايته بالقوّة، وذلك كأفراد وجماعات.

قالت موظّفة شركة السياحة بما يشبه الاستنكار:

- هنالك لا نهاية من الرحلات المنظّمة، السؤال عمّا تبحثين؟ ما هدفكِ؟

- لا أعرف، أنا مهتمّة بالموضوع، ما لديكم؟

- يوجد رحلات للعلمانيين، ورحلات للمُتديّنين، ورحلات للحريديم المتشدّدين الذين يهمّهم زيارة أضرحة الأولياء والفقهاء أكثر من المعسكرات ..

- بالتأكيد، لا أبحث عن رحلة مع مجموعة حريديم.

- إذاً، لا يلائمكِ السَّفَر أيضاً مع جماعات التّديّن الصهيوني ... على ما أعتقد .. لديكِ نوعان من الجماعات العلمانية أيضاً .. هنالك مَنْ يقيمون تقاليدَ السبت، ومَنْ لا يهمّهم الأمر، ولا يقيمونه، وهؤلاء

عادة من الصعب الفَصْل بينهم، فإذا كنتِ ترغبين كما أرى .. رحلة منظّمة لمجموعة لا تقيم جميعها طقوس السبت، فعليكِ الانتظار ربّما لأشهر ..

- أشهر؟ لا .. لا وقتَ لديّ للانتظار.

- إذاً، هنالك مجموعات مختلطة، قد تُلائمكِ ... ولكنْ، عليكِ أن تحدّدي أكثر طبيعة غرضكِ من الرحلة ..

شَعَرَتْ جانيت أنها في اختبار قبول لعمل هامّ، وليس إجازة ستسدّد تكلفتها من الغالي والنفيس ...

هنالك جولات معسكرات موسّعة، أي في بولونيا، النمسا، ألمانيا والتشيك، وآبار الإعدام في أوكرانيا، وهناك رحلات لبولونيا فقط لأربعة معسكرات إبادة رئيسة، ويشمل ذلك فنادق أفضل، وإمكانية القيام بمشتريات شخصية، حيث تنتشر محال "الآوتلت" هناك، الجولات الموسّعة مُرهِقَة، فيها الكثير من التّنقّل في الحافلات، ولا وقت لشيء آخر ...

- ألا توجد رحلات في الوسط حالياً؟

- للأسف، لا ... عليكِ الانتظار، أو اختيار الجولة في بولونيا مع المجموعة العلمانية، أو المجموعة الموسّعة ...

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

ولكنكِ قلتِ في البداية أنْ لا مجموعة علمانية، وأن الفَصْل مستحيل ..

سيّدتي، ولكنني أوضحتُ لكِ أن المجموعة علمانية، ولكنْ، ثمّة مَنْ لا يقيم طقوس السبت فيها، وثمّة مَنْ يقيم هذه الطقوس، ومنها عدم التّنقّل في هذا اليوم، لذا يكون برنامج الجمعة مساء والسبت اختيارياً ومفتوحاً، وعادة في مدينة كبرى كوارسو أو كراكوف أو لودج، بحيث يمكن لمَنْ لا

يقيم طقوس وتقاليد السبت التّنزّه وقضاء وقته وحده، أو مع المجموعة كما يشاء ... واضح ...

شَعَرَت جانيت برغبة في صَفْع وكيلة السَّفَر، وإلغاء الفكرة كلها، فلم تكن الموظّفة وقحة، وكأن جانيت ستسافر من خلالها مجاناً وحسب، بل أشْعَرَتْها منذ البداية أنها غريبة عن منظومة المعرفة هذه، وأنها غير مُنتمية لثقافة المحارق النازية وسياحتها، وأنها قد أخطأت باختيار حلمها، لقد زَرَعَتْ فيها غربة الترحال والسَّفَر، والرحلة لا تزال فكرة ... مجرّد مخطّط لفكرة طموحة لامرأة فلسطينية مسيحية، تنتمي إلى نادي هواة الحرب العالمية الثانية، وهم ينتشرون في أقصاع الأرض كافّة، وهي جماعة كبيرة، لا يعرف أعضاؤها بعضهم البعض، ولكنهم يعرفون جيّداً بأنهم لا يتشفّون بضحايا هذه الحرب، ولا يفرحون للتّفرّج على تاريخ الفظائع، بل يهمّهم اكتشاف خبايا التاريخ التي تؤدّي بالبشر إلى اتّخاذ قرارات بإبادة مجموعات بشرية أخرى تحت أقنعة أخلاقية وتبريرية ... ولكنّ ما لم تفهمه جانيت هو جذور هذا العشق الملتهب في قلبها، وهي أبعد ما تكون ظاهرياً على الأقلّ وتربوياً عن مثل هذه العوالم التاريخية الكبيرة والحاسمة، والتي تُفنى فيها حيوات جماعية كاملة على ذكرياتها وصورها واحتمالاتها لأغراض استراتيجية مُبطَّنة بغطاء بلاغيّ مُنمَّق.

عندما كانت جانيت ترغب في التّعمّق في الفكرة أكثر بعيداً عن الشعارات الحقوق -إنسانية الممجوجة ما كان يجذبها في الموضوع هو رَصْد عملية "التدهور" عن كثب .. كيف يمكن لجماعات بشرية، تعيش بفردوس من الحياة الاجتماعية والثقافية والجماليات والأناقة والأمان أن تتحوّل إلى مجرّد أكوام من الهياكل العظمية المفتّتة المَنسية في معسكر إبادة، أو أن تصبح تلك الجماعات مادّة اشتعال وانصهار للطاقة الجبّارة

المنطلقة جرّاء انشطار الذّرّة؟! كان في فكرة الفردوس الوَهْمي الذي تعيش فيه هشاشة البشر ما يجذبها ويُحزنها، في آن.

حان موعد السَّفَر دون تجهيزات كثيرة حتّى لقاء التعارف والتوجيه الذي دُعي إليه أفراد المجموعة، لم تذهبْ إليه جانيت، فقد خافتْ أن يكون اللقاء صادماً وسيّئاً لها، وخاصّة أنها لا تستطيع الإلغاء أو التراجع في هذه الفترة المتأخّرة قبل الرحلة بأسبوع، أرادتْ أن تقفزَ في الماء، ولا تنظر خلفها، وألا تجعل المقدّمات تُميِّع الأمرَ، أو تجعل كل حكاية الرحلة كابوساً يطبق على أنفاسها وهي نائمة، ولا يمكن الفرار منه. كانت استراتيجيّتها البقائية تتمثّل بالحفاظ على عزم داخلي كبير، على أن تظهر تجاه الخارج كامرأة غريبة الأطوار، لا تتكلّم، غير خجولة مع ذلك، ولكنها أيضاً لا تسعى للاختلاط والتعارف، لذا قرّرت أن تكون شديدة الأناقة مع المبالغة في ذلك، وإضفاء كلاسيكية سبعينية شديدة على مظهرها مثل فاتن حمامة في "إمبراطورية ميم"، أو مديحة كامل في "الصعود إلى الهاوية"، والحرص الدائم على اعتمار القبّعات الدراماتيكية، ونظّارات الشمس حتّى في الأماكن المغلقة، أو في الطقس الغائم، والمعاطف القديمة المصنوعة من جلود حيوانات، قُتِلَتْ خصيصاً، وذلك كي تخلقَ هالة، تُبعد عنها الأشخاص، وتُخيفهم منها.

وارسو

لم تكن الأيّام الثلاث الأولى في وارسو ومحيطها تحمل تلك الحدّة التي كانت توعد بها تجهيزات الرحلة .. التي كانت تبدو كرحلة العمر إلى المجهول ... كانت الأيّام الأولى مُخيّبة للأمال، ومريحة في الوقت ذاته، فالفظائع الوحيدة التي شاهدتْها جانيت هي تلك المتمثّلة بقتامة الطقس، وقبح الأبنية من الفترة الشيوعية، والتي لم يفلح النمط التحديثي/

الاستهلاكي الذي هبّ على المدينة أن يمحو وَقْعَهَا .. فكان أحياناً الدَّمْج بين تعاسة السماء وتعاسة المباني يثير سؤالاً لا مفرّ منه .. هل جاء هؤلاء البشر المجانين لممارسة التعذيب الذاتي/ الجماعي أم الانتحار؟.. ولكن الأمور كانت تختلط وتتغيّر سريعاً خلال النهار، ولكنها لم تكنْ بتلك التوثيقية القريبة من التاريخ، كما توقّعت جانيت، كانت الأمور والمشاعر تتجاذب بين المتعة النسبية والشعور أن مظهرَها يتلاءم مع الأجواء الأوروبية، وخاصّة عندما زارت المجموعة، وتنزّهت في حدائق شوبان وبعض القصور، بينما كانت المشاعر تتهاوى أرضاً، كلّما زارت المجموعةُ القبورَ اليهودية والمزيد من القبور والمزيد والمزيد من القبور التي لا علاقة لها بالمحرقة، بل تُوثِّق الحضور اليهودي في القرنَيْن الثامن عشر والتاسع عشر ... وخاصّة أضرحة شخصيات، كانت تعتقد جانيت أنها مجرّد شوارع في حيفا وتل أبيب ... يود.لاميد. بيرتس، راحيل كامينسكا، زامنهوف، وغيرهم ... شاهدتْ جانيت قبوراً وأضرحة في يومَيْن، تكفيها لمدى الحياة ...

انسحب التجاذب في المشاعر والمزاج أيضاً على علاقة جانيت بالمجموعة، حيث تغيّر بسرعة بين الكراهية الشديدة والحقد والنفور من التّحدّث بصوت عال، والسوقية وطريقة اللباس والعجز أمام حقيقة أن هؤلاء مجرّد "لمم" سرقوا لها أرضها، وساهموا في تدمير عائلتها ووجودها وحاضرها .. وبين الإعجاب والتعاطف والرغبة في التّحدّث إلى البعض، على الرغم من استراتيجية البقاء التي فرضتْها على نفسها. تكوّنت المجموعة من زوجات وأزواج في سنوات السّتّين من حياتهم، لازموا أحدهم الآخر كالظّلّ، كأنهم يخافون من أن يختطفَهم أحدٌ، إضافة إلى أختَيْن مُسنَّتَيْن جداً، كانتا تتحدّثان طوال الوقت بينهما بالألمانية، ولا تُحدّثان الآخرين، بل تبتسمان لهم، لسبب أو بدون سبب، وكان هناك أيضاً رجل وحده، يُدعى ... نفتالي.

ظنّتْ جانيت أن زيارة معسكر ترابلينكا على بُعد حوالي ٦٠ كيلومتراً عن وارسو ستُغيّر شعورَها بأنها في جولة أوروبية قاتمة وثقيلة لذوي المحدوديات الجسدية والنَّفْسية، ولكن زيارة المعسكر الرهيب الذي قُتِل فيه حوالي ٨٠٠،٠٠٠ شخص مع بدايات مسيرة الإبادة، لم تكن ذات فائدة، حيث إن المعسكر كان قد دُمِّرَ من قِبَل الألمان عن بكرة أبيه لإخفاء معالم الجريمة، فتبقّى منه مجموعة حجارة، حُفر على كل حجر منها اسم طائفة يهودية، جُلب أعضاؤها لهذا المعسكر، وقُتلوا ..

ساد الصمت أمام هذه الأحجار فجأةً، ثمّ بدأ بعض الأفراد بالنحيب المخنوق، بينما قام رفاقهم بالتربيت على أكتافهم أو عناقهم ببرود غربي ... وحدها جانيت كانت تقف بمعطف الفراء وقبّعة فيلم "الحبّ الضائع" تبحث عن شيء، تنظر إليه ... لتجد نفتالي ينظر إليها، أو بالأحرى ينتظر أن تنظرَ إليه.

كراكوف

كانت كراكوف بالنسبة لجانيت مجرّد مدينة أوروبية أخرى، تحاول أن تكونَ أنيقة ورأسمالية كمثيلاتها من المُدُن، ولكنْ، في الجانب الغربي من القارّة، ولكنّ شيئاً ما في المدينة، لم يكن حقيقياً، فقد كانت تحاول تقليد شيء، لا يمكنها أن تُجاريه، أو تكون مثله، كان ثمّة شيء ناقص، كي تستطيعَ جانيت التعاطف، أو حتّى الشعور بشيء محدّد ما تجاه هذه المدينة، فقد توقّعت مثلاً أن يكونَ الفندق الذي سينزلون به في كراكوف مخيفاً، أو قديماً، أو به هياكل عظمية وجماجم لأناس مجهولين تحت البلاط، لكنْ، لم يكنْ ثمّة بلاط في الفندق، بل كان فندقاً بلاستيكياً أو خشبياً، كل شيء به يلمع أكثر من اللزوم، الحمّامات بيضاء جداً، وكذلك الغرف، ألوانها عملية جداً، ومحايدة، وكل شيء فيها مُرتّب إلى حدّ الجنون، ولكنه

لا يتجاوز حدود ما يحتاجه الإنسان، ليقيم ليلتَيْن في مكان ما ... هكذا كان معسكر أوشفيتس- بيركناو أيضاً مُمأسساً أكثر من اللزوم، سياحياً أكثر من اللزوم، منطقياً أكثر من اللزوم، هنا سكّة الحديد، هنا المحطّة، هنا كان يتمّ الفَرْز بين مَنْ يتوجّب أن يموتوا ومَنْ سيحالفهم الحظّ بالحياة، هنا الشرفة التي كان يطلّ منها الضباط النازيون على أبشع جرائم التاريخ، هنا بيت ضابط المعسكر، وهنا كان يلهو أطفاله الشُّقر من ذوي العيون الآرية الزرقاء، وهنا المتحف، وبطبيعة الحال، فإن كل فظاعة أو حَدَثاً جللاً حين يُؤطّر في متحف .. يفقد الكثير من مضمونه، وهنا نفتالي ... كان نفتالي يلحقُ بجانيت كظلّها دون أن يتكلّم، باستثناء كلمات آسف، وشكراً، وعذراً ... كان يسير بجانبها بين صور أكوام الجثث المتهالكة من الجوع، والمراحيض الجماعية المرتّبة بإحكام ... حتّى بدأت تُصدّق بأنه قد يكون شخصاً أخوتَ، أو سفيهاً، أو يعاني من مشكلة نَفْسية، تجعله يلتصق بأشخاص لا يعرفهم بدون استئذان، وبابتسامة لا تتغيّر، ولا تشي بشيء سوى بدماثة، لم يطلْبها أحدٌ، ولم تتوقّعها جانيت نفسها، وخاصّة وسط تلك التفاصيل التوثيقية المُوجِعة، والتي لا تستدعي الابتسام. كان نفتالي يقترب من منطقة عنقها، وهي واقفة تنظر إلى لوحة أو إحدى الشواهد، ويُصدر زفيراً غريباً، وكأنه يستنشق عطرها، كي يكونَ باستطاعته إكمال الجولة المرهِقة، تماماً كالطفل الذي يطلب بين الحين والآخر حضنَ أمّه أو أبيه في أثناء رحلة عائلية مُتعِبَة وطويلة، وذلك كي يستطيعَ بعدها عيش طفولته المتطلّبة كما يجب بعد التّأكّد من أن أمّه المعنوية لا تزال هناك.

في مديانيك، كان الوضع مختلفا تماماً، ودراماتيكياً أكثر، حيث يقع المعسكر داخل مدينة لوبلين، وليس في قرية نائية، حيث كان المعسكر بأسلاكه الشائكة يظهر من نافذة الفندق الصغير حتّى إن بعض البيوت وبنايات المدينة كان يفصلها عن المعسكر الذي يبدو وكأنه هُجِر لتوّه من

قِبَل النازيين، كان كل شيء طازجاً وطرياً .. والتربة رطبة، والغابة كأنها تتستّر على المزيد والمزيد من الجثث، أو ربّما تحميها. انقلب مزاج جانيت في مديانيك، ولأوّل مرّة من سبعة أيّام، شَعَرَت أن ثمّة غددَ دموع في عينَيْها كبقية البشر، كانت غدد الدموع أو مستودعاتها تمتلئ بشكل تلقائي، كلّما تقدّمت الساعات في مديانيك، أو في المدينة المُطلّة عليه، لأوّل مرّة فكّرت جانيت في والدتها، والتي ماتت، وقد بدا شكلها مثل شكل الأبدان التي تآكلت حتّى الفناء في ذلك المكان بعد أن كانت أجمل امرأة عرفتْها بصدر مكتنز، كما فكّرت في أميل الذي صار صمتُه وسكينتُه بعد وفاة الماما يؤرّقانها .. وفكّرت في سوسن التي لم تعدْ حتّى قادرة على الحزن عليها، بدليل أنها سرقت حصّتها في الإيجار دون تأنيب ضمير، بحجّة أنها بالتأكيد سوف تشتري بالمبلغ سخافات، وأموراً لا قيمة لها، وملابس لبنت صغيرة، لا توجد لديها، وهدايا لأشخاص ماتوا أو وَهْميين، كما فكّرتْ جانيت بي ... أخيها الصغير حيث فكّرت في الاتّصال بي من مديانيك، لتخبرني أنها تشتاق لي، وتحبّني، وبأنها تستمتع بالرحلة، وتُحدّثني عن نفتالي الغريب وتصرّفاته معها ... وتُخبرني عن حملة المشتريات التي قامت بها بالسّرّ في كراكوف، وعن الذوق الفظيع لسكّان هذه المدينة، وكيف أن الذوق يورَّث بالتأكيد، وأننا ورثنا من والدتنا وخالاتنا وجدّاتنا الذوقَ الرفيع ورهافةَ الحسّ والجنونَ أحياناً ... ولكنني لم أكنْ ...

كان المكان تراجيدياً للغاية، من الصعب استيعاب كون الأشخاص سكنوا في هذا المكان قبالة جدار الأسلاك الشائكة، حيث كان يُباد في كل يوم الآلاف من الأشخاص، حيث ادّعوا أنهم لم يعلموا ما كان يجري هناك، سارت المجموعة في المسار ذاته الذي كان الضحايا يُساقُون فيه إلى موتهم من "الساحة الحمراء" التي سُمّيت هكذا، بسبب كمّيّات الدم التي سُفكت هناك لمَنْ أطلق النار عليهم كعقاب فوري. في هذه

الساحة، أُوقف الأشخاص للفَرْز النهائي قبل دخول "المغاسل"، من هناك، أُدخلوا لغرفة طويلة، تمّت تعريتهم، اغتسلوا، ومن هناك، أُدخلوا لغرفة الغاز، حيث تمّ حَشرهم في حجرة الإسمنت الصغيرة، وأُبيدوا .. تواصل المسار ... حُرقت الجثث داخل بئر في الحقل المقابل، وعندما تمّ تطوير العملية، نُقلت الجثث للمحارق الصناعية في طرف المعسكر. كان الرماد يُلقَى إلى مكان مركزي، يسمّى "جبل الرماد" – وهو عبارة عن ٣ طوابق من الرماد والعظام البشرية التي أُخرجَت من المحارق، وتمّ تركيزها في الجبل، والمغطّى اليوم بقبّة من باطون نصف دائري. أما غرف القيادة، فقد تحوّلت إلى متحف للذكرى، تُعرض فيه صور ضباط القيادة، صور الأسرى، ملابسهم وأغراضهم الشخصية، إضافة إلى سرادب مخصّصة لملابس الضحايا من غير الأسرى من الرجال، ملابس نساء وأطفال، أما الأحذية، فقد خُصّص لها سرداب خاص، حيث اصطفّت الأحذية بشكل مُرعب في أقفاص فولاذية، ٨٠٠٠٠٠ زوج أحذية، عبرت جانيت آلاف أزواج الأحذية بملابس مديحة كامل في المشهد الأخير من "الصعود إلى الهاوية"، وخلفها نفتالي، ولتفتقت هذه الصناديق كلها، لكنها فجأةً تجمّدت أمام حذاء زهري، يوشك لونه على التلاشي، لبنت لا يتجاوز عمرها الأربع سنوات، تحجّرتْ جانيت في مكانها، ثمّ انهارت باكية لأوّل مرّة بعد أكثر من أسبوع، أما نفتالي، فكان وكأنه بجاهزية تامّة طوال حياته لمثل تلك اللحظة، ليتخطّى فيها كل ما كان يفصله عن جانيت، فانقضّ وحده دون أن يطلب منه أحدٌ ذلك، وعانق جانيت بحرارة شديدة، وبوجه يكاد يتفجّر من شدّة احمراره، وكأنها مزيج قديم من ابنته وحبيبته وأخته وعشيقته ومُجرّد زميلة انهارت في متحف يُوثّق إبادة جماعية، التصق نفتالي بجانيت، وضغط جسده بجسدها الذي استسلم تماماً لذلك الحضن الدافئ في تلك البلاد الباردة، وذلك على الرغم من شعورها بانتصاب

نفتالي الجبّار الذي كان يتعاظم، ويشتدّ كلّما ضمّها إليه أكثر وأكثر.

قبل مغادرة لوبلين، حَدَثَ تشويشٌ في برنامج الرحلة، لم يكن بالحسبان، فقد كان من المُفترَض أن تغادرَ المجموعةُ المدينةَ التي أثقلت كاهلهم بالحزن للتّوجّه إلى لودج، العاصمة الاقتصادية لليهود في بولونيا قبل الحرب العالمية الثانية، والتي لم تكن تحتوي على معسكرات إبادة قريبة، بل بعض الكُنُس وبعض القبور الباقية، ولكن بعض أعضاء المجموعة من كبار السّنّ عبّروا فجأةً عن رغبتهم بالبقاء في لوبلين لليلة إضافية، ومن ثمّ العودة إلى وارسو لآخر يومَيْن من الرحلة للّحاق بالمجموعة، وذلك بسبب التعب والإرهاق النّفْسي والشعور بنوع من الاكتفاء، أُعجبَت جانيت بالفكرة، وانضمّت للمجموعة الصغيرة المتبقّية، حيث آثرت الحفاظ على طاقاتها للأيّام الأخيرة في وارسو، والرحلة الاختيارية نوعاً ما إلى معسكر سوفيفور البعيد على الحدود البولونية مع أوكرانيا وروسيا البيضاء، أما مَنْ تبعها في قرارها بطبيعية شديدة، ودون أن يسألها، فقد كان نفتالي، الذي أصبح ظلّها الرسمي بالفعل. كانت المشكلة الوحيدة في تجديد حَجْز الفندق للأفراد الباقين هو عدم وجود غرف فَرْدية، تكفي مَنْ تبقّوا، وذلك بسبب وصول مجموعة جديدة من الولايات المتّحدة، وكان على جانيت في هذه الحالة الاختيار بين المكوث مع الأختين أو النوم في الغرفة نفسها مع نفتالي، الذي لم يُعطِها فرصة للتفكير بالأمر حتّى:

سنكون في الغرفة نفسها .. لا مشكلة لديكِ، بالطبع؟

لم تستطع الرفض، كي لا تبدو متخلّفة، وخاصّة بعد الحضن المنتصب الذي تلقّتْه يومها ... ولكنها وهي تهزّ برأسها إشارة للموافقة القهرية .. أخذ رأسها يعجّ بالتداعيات النمطية التي سادت لدى أهل فلسطين من العائلات البرجوازية حول القادمين من الدول السلافية ... الملابس

المتعفّنة ورائحة النفتالين والعُثّ عليها ... رائحة السمك المملّح ... البيض المسلوق الذي يخبّئونه في الحقائب والجيوب السّرّيّة، معلّبات سمك التونا التي يتعشّونها، رائحات الجوارب، وخاصّة جوارب نفتالي هذا الذي كان يرتدي الثياب نفسها طيلة الرحلة، وهي تكاد تضاهي ببشاعتها وبؤسها ملابس أيّ متسوّل أو مشرّد مخضرم، حتّى يبدو بعض المشرّدين في وارسو وكراكوف أكثر أناقة منه .... هذه الروائح التي ستفوح عندما سيفتح نفتالي هذا الشيء الأثري الذي يسمّى حقيبة، ويتعرّى من تلك الأسمال البالية التي تُسمّى ... ثياباً.

ولكن الأمور لا تكون دائماً بالفعل كما تبدو ... فقد تفتّقت تلك الأقمشة كلها وكل تلك الصناديق المعتمة عن جسد جديد، طازج، متناسق، هادر، يتحرّك بنزق وحبّ وشهوة، لا سنَّ فعلي له، وأير سلافي، زهري مكتنز، حيث يجب، أملس، أير منطقي، يحمل شوقاً ورغبة، تمّ تجميعهما طوال هذه الأيّام المرتبكة، طيلة هذه السنين الضالّة، كعادته، لم يستأذن نفتالي من جانيت حين جَلَسَ على السرير الذي اختاره، وأمسك بيدها، وهي تتظاهر بترتيب ملابس الغد، وتعليقها، حيث دَفَعَهَا إليه وهي لا تزال ترتدي ملابس "الصعود إلى الهاوية"، وأخذ يلتهم شَفَتَيْهَا بشهوة ورغبة جامحَتَيْن ... بحيث لن يتبقّى لها أي مجال للفرار، أو الصّدّ ... لم تستوعبْ جانيت المشهدَ مع أنها توقّعته بعد تفكير استرجاعي .. وكي تتأكّد من كون الموقف بشرياً ضَغَطَتْ على أيره المنتصب بعُنف تحت البنطال، ما أجّج نار لعبة العشق هذه أكثر وأكثر ... حتّى إن حقيقة وجود الأسلاك الشائكة للمعسكر، ليس ببعيد عن نافذة الغرفة لم تخمدْ لهيب النار، كما هو مُتوقّع في مثل هذه الحالات .. بل قد يكون هذا الوجود على العكس، قد أجّج تلك النيران كلها ...

على الرغم من الفجوة القائمة بين نفتالي الظاهري بملابسه ووحدته وتصرّفه كظلّ دائم وبين نفتالي العاشق بجسده الفتيّ المنساب وفحولته ورقّته في آن، والتي تندر لدى الرجال في مثل هذه السّنّ المتقدّمة .. فقد شَعَرَتْ جانيت لأوّل مرّة أنها موجودة علمياً ومادياً، وأنها ليست مجرّد فكرة، تحاول البقاء على قيد الحياة .. أو قذف بحر لعائلة مجنونة، فتّتها ضجيج أفولها.

في معسكر الإبادة النائي سوفيفور قرب حدود بولونيا مع روسيا البيضاء كان نفتالي وجانيت يتمشّيان ببطء وتخايل، يحاول إمساكها من أماكن حميمة، فتحاول إمساكه بالمثل من أماكن حميمة، على سبيل الانتقام اللذيذ بين العشاق، ليحاكيا بعدها وبشكل غير واع مشهد البداية بين حسين فهمي ونجلاء فتحي في فيلم "حبّ وكبرياء".

محطّات للصبيّ المنتظَر

في المحطّة الأولى - عفواً - سأسمّيها الليل .. لا أعرف أحداً ممّنْ يجلسون قربي، ولا حتّى تلك الأحياء الدقيقة التي التي تقوم بطلاء المقعد الذي أجلس على أطرافه، بالموت ... لتنقلَ لي عبر هذا السحاب الكثيف الرمادي الغائم أمراضاً .. لم أعد أجرؤ على عَدِّها .. لشدّة التّلوّث .. لا أعرف أحداً ممّنْ يجلس بعيداً عنّي .. أتأمّل يدي الرجولية التي تحوي قدراً مناسباً جداً من الشعيرات، أبحث بدافع المَلَل في تلك العلاقة التي تبدو مستحيلة بين نعومة معصمي وخشونة الجزء العلوي من أصابعي ... تبعث هذه العلاقة على الكآبة .. يقترب إلى رجل هرم بملامح أورو - مركزية : مرحباً ..ألا تذكرني؟ التقينا في حيفا قبل تسع عشرة سنة في "بيت درج" البناية العربية المدمّرة .. ألا تذكرني؟.. داني .. اسمي ..لقد قرأتُ لك نصاً مترجماً إلى العبرية عن .. لا أدري ..الحب، الهوية، الشبق، القليل من اليأس، ربمّا المدينة، المجتمع .. أعجبني جداً ... شكراً ..كنتُ أودّ لو التقينا على فنجان قهوة ... وتحدّثنا ...

لماذا؟

في المحطّة الرابعة - آسف - سأسمّيها الفجر، لا يأتي القطار .. يا للجملة الشعرية المبتذلة، لا يأتي القطار .. أو كل القطارات لا تتوقّف في محطّتي .. أو ربمّا مضى قطار العمر، يا ولدي .. لماذا أعتقد دائماً أن الليل لا ينتهي، وأن الضوء هي حالة افتراضية مخطّطة، لا تأتي إلا بعد الغياب؟! ها هي

الساعات تندلق هباء، والقطار لا يدخل المحطّة إلا ليُغادرها دون أن يفتح أبوابه، وها هو ضوء الفجر يظهر(جملة مبتذلة أخرى) لا يأتي القطار، ولا أعرف أحداً ممّنْ يجلسون قربي .. أتمشّى باتّجاه الأفق الجنوبي، عليّ أصل .. إلى شيء ما .. ربمّا ... يناديني صوت خافت، ثمّ يرقد كالعصفورة على كتفي ... لا يوجد مكان تهرب منه من هنا .. سوى خروجكَ من المحطّة، ولكنني أعتقد أنهم سكارى .. أقفلوا البوّابات بالأقفال السميكة، ونسوا الركّاب هنا على الرصيف .. كي يلتقوا معاً بعد عشرات السنين، أليس لهذا الغرض تمّ اختراع أرصفة محطّات القطار؟.. لقد افترقنا في مطار شارل ديجول قبل اثني عشر سنة، ولم نلتقِ (بحقّ) من وقتها .. لا أعرف لماذا .. ولكني أقرأ نصوصكَ .. دور الضحية رائع .. تُتقنه بمهارة .. ثمّ أخذ/ت ي/تصرخ.. أنتم معشر الكتّاب شعب "خروات" حقير .. عليكَ أن تحشر نصوصَكَ وكُتُبَكَ كلها هذه في دبركَ .. مع أنني واثق/ة أنكَ ستتلذّذ ... هيّا .. ماذا تنتظر؟ لا مفرّ من هنا .. خبّرني، ماذا حَدَثَ منذ لحظة افتراقنا عند السلالم الكهربائية الأنبوبية في شارل ديجول؟.. هيّا، وبالتفصيل ...

في المحطّة السابعة - أصبح الأمر مملاً - سأسمّي المحطّة هذه المرّة طريق البحر ... ففي طريق البحر ثمّة أمور يجب أن تذكّركَ بالبحر .. لا أن يعزف المُسنّ في الوقت الضائع موسيقى لنهر الدانوب .. أو أن تُسرِّح الأمّ شَعر بنتِها الذهبيّ الناعم الطويل قبل دخولهم إلى عرض البالية المسائي .. لا أعرف أحداً ممّنْ يجلسون قربي، ولا حتّى تلك الدمية التي تتقيّأ شرائح حزن .. أو ذاك الرجل الأنيق بالحذاء اللامع وحقيبة المديرين الهامّين، والذي يبحث في أكوام القمامة عن شراب مختمر، وعن منديل معطّر بآخر لحظة حبّ ذات معنى، تسلّلتْ قربه ... أُشعل سيجارة، أحمل الفأر الذي يجلس على المقعد الشاغر، ويقضم فُتاتاً غريباً، يبدو كالعَظْم، وأضعُه داخل الحيّز المبعوج بين لوحة الإعلانات الطويلة وشريحة الزجاج المُطعَّم

بالبلاستيك .. التي تُغطّيها ... يُداهمُني صوتُ طفل أو طفلة (يتعلّق الأمر بشؤون الخلافات حول الفجوة المتّسعة بين النوع والجندر) .. أيّها الشّرّير، هذا ما تفعله بالفأر، تُلقي به بين جدارَيْن .. ألم تعرفني؟.. بالتأكيد، لا ... قبل تسع سنوات قرأتُ قصّتكَ "البيت السابع" وقد راعتْني هذه الفقرة " في البيت السابع، زَحَفَ الرجل الأبيض الأنيق نحو سرير الطفلة النائمة، و منذ ذلك الحين، لم تعد الأجوبة المُعدَّة سَلَفَاً .. تعني شيئاً ." أنت لم تُكملها، لأنكَ شرّير، ولم تجبْ على أيّ سؤال، لأنكَ كلبي، يتلذّذ بأوجاع الآخرين، ويشرب العَرَق، ويمرّ على كبد الأطفال .. ولكني لا أحبّ العَرَق .. الكحول إجمالاً .. وأقرف من رائحة الكبدة .. يعني ممكن أن آكلَها، إذا كانت مقلية إلى درجة التحجّر شبه التّامّ .. أصمتُ.. أنا لم أكبرْ منذ ذلك الحين، ولا أعرفُ إن كنتُ بنتاً أم وَلَدَاً ..

في المحطّة الثالثة عشرة – سأسمّيها - المتحف، ينقب المسافرون عن آثار قديمة، ينصبون الخيمَ السوداء فوق كل حفرة، ويتلفّتون حولهم، كي لا يضبطهم أحدٌ عندما يجدون عظام موتاهم .. يقف قطار، وتنزل منه امرأةٌ بولنديةٌ بشَعر مَكوي، وتايورٍ أربعينيّ، تمسح المرأةُ دمعةً جمّدها سواد الكحل وبرودة الجوّ، على شكل قطرة نموذجية .. يخرج بعدها رجالٌ كثيرون، تنظر إليهم إلى الخلف بمرارة مستكينة، وتمضي وكأنها لن تسامحَهم طيلة موتها على ما فعلوه بها داخل القطار، وأنا أتأمّل الرجال بالقبّعات والكوفيات البيضاء، يناديني صوت أبي، ثمّ أجده أمامي (خلافاً لما حَدَثَ في مسرحية كاسَكْ، يا وَطَنْ).. أنا لم أفهمْكَ مرّة، لم أفهم مرّة تلك الهوّة السحيقة بين المخلوق(الصبيّ المُنتظَر) الذي خطّطته بعناية وبين النتيجة .. وذاك الجنّ الذي ركب الصبيّ .. هنالك سنوات، لا أذكر منها شيئاً، أنا لا أفهمُكَ أيضاً.. لماذا كنتَ تبتسمُ في خِلْقَتي طوال الوقت؟ لماذا كنتَ تُخبر البائعَ المتجوّل عن ابنكَ الكاتب، وتهدي الشّحّادة كُتُبي بدلاً

من فُتات طعامنا، أو قطعة لحم ونقود؟! ..لماذا؟!... لأنني لم أستطعْ تحمُّل تفاصيل النص .. لأنكَ لم تستطعْ تحمُّل ما ضاعَ وفلتَ منكَ من .. من مشهديات ومكاشفات مشهية في النص ..

في المحطّة الأخيرة - لا اسم لها، نبقى أنا وقطّة صغيرة وُلدَتْ قبل أسبوعَيْن، على ما يبدو، أنتشلُها من بين القمامة، وأعود إلى "البيت" ...

١٩) سوسن تصطحبني أخيراً إلى المدرسة

كانت سوسن قد صحبتْني في ذلك اليوم من يدي، وقادتْني إلى ساحة المدرسة الابتدائية المختلطة، كي أصبحَ شخصاً مثالياً، يعاشر أبناء وبنات الأغنياء والطبقات الراقية الذين يتوارثون التجارات والمحالّ من الجدّ إلى الأبناء وصولاً للأحفاد ... ولكنني يبدو أنني لم أقتنعْ منذ اللحظة الأولى بكُلّ هذا الهباء، فخرجتُ من فتحةٍ شبه ارتجالية، تؤدّي إلى أرض فارغة، ثمّ صَفِّ مبان أخرى، فشارعٍ، فمحطّةِ باصٍ إلى اللا - مكان ... أذكر حين بحثتْ سوسن عن أشطر وأغنى وأجمل وأقوى الأولاد في صفّي الجديد، لتُعرّفني عليهم بعَدَم اكتراث أو حنان زائد، ثمّ غابتْ، وكأنها تقول لي .. الآن ستدخل في نادي أبناء الذوات وطبقة التّجّار الوسطى ومُحدثي النعمة، فلا تفضحني ... لا أتذكّر إن كان هنالك ثمّة حنان، أو كي لا أظلمَ أحداً، ولكني أتذكّر وقتَها أنني أردتُ أمّي، وليس سوسن .. اشتقتُ لها... وأردتُ الانضمام لجانيت في مدرستها غير البعيدة، حتّى وإن كانت مدرسة بنات فقط .. تعرّفتُ على أقوى وأجمل وأغنى وَلَد في الصّفّ، وقد استغرقَ الأمرُ خمسَ دقائق، وانتهى، لأبحثَ بعدها وطوال أربع عشرة سنة عن فتحة في الجدار السياجي، لأخرج منها ... تخرّجتْ سوسن من المدرسة بعد ذلك بعامَيْن ... ثمّ جُنّتْ .. ففُرِغ كل ما يتعلّق بالارتقاء الطبقي، أو فلنقل التعزيز الطبقي من فحواه .. ولكنني نُسيتُ هناك عَبَثاً .. حتّى إنني شعَرْتُ في بعض الأحيان أن أبي وأمّي نسيا سهواً أنني هناك ... فقضيتُ ما تبقّى من زمنٍ في البحث عن مخرج ...

مذ جُنَّتْ سوسن، لم أستطعْ أن أكونَ شخصاً متكاملاً حتّى عندما كنتُ أحاول ذلك بشكل بائس .. كما أنني لم آخذْ قرضاً سَكَنياً، لأظهر وكأنني أعيش في قصر مُملّ، ولم أركبْ أفخمَ السّيّارات الألمانية .. كنتُ أتركُ سيّارتي المتواضعة قذرةً مليئة بالقاذورات وبقايا الأوراق، بلا ماء تبريد، ودون زيت محرّك، إلى أن تنفجر ذات يوم ... كانت محاولاتي حتّى للظهور في المناسبات العائلية الموسّعة بذلك الشكل المثاليّ الذي لا ينقصه شيء، ولا يظهر ضعفه، أو توتّره .. فاشلة .. فاشلة جداً ... وبدتْ كالسيرك البائس الذي يقتصر على لاعبٍ واحدٍ، يقوم بنَصب خيمته بنفسه أيضاً. لقد شُرِخَ شيء عميق في مرآة الكمال الظاهري .. شيء لا يمكن إصلاحه، ولا يمكن معه العودة إلى الوراء ... عليكَ المُضي قُدُمَاً، وأنتَ تحمل في بطنكَ كرةً ملتهبة من الأشواك ... باءتْ محاولاتي بالتّظاهر بما أنا لستُ عليه، بالفشل الرنّان ... فلم أستطعْ استعراضَ أنواع السيجار الفاخر الذي لا أدخّنه ... ولا الويسكي المعتّق الذي لا أشربه، أو فلنقل أكرهه .. ولا إجازات التزلّج الذي أخاف ممارسته ... ولا سترة ال Hugo Boss التي لا أرتديها، ولا أملكُ ما يكفي من مال لفعْل ذلك (حيث كنتُ أفضّل توجيه مواردي المالية إلى أمور أتفه)... كنتُ عارياً طوال الوقت من كل شيء .. سوى من نفسي.

في منتجع "كابو سان لوكا" على حافة لسان خليج كاليفورنيا في القسم التابع للمكسيك، حاولنا تجنّب بعضنا البعض في اللحظات أو الدقائق الطويلة التي يمكن أن يسود فيها صمت مبرّر، يتطلّب تعبئته بحديث ما .. أيّ حديث ... وقد ساعدنا في ذلك كِبرُ حجم المنتجع، وترامي أطراف مرفقاته، بحيث يمكنكَ الاختفاء فيه بسهولة، أو الهروب إلى السوق غير البعيد للبلدة الرطبة، لاحتساء أيّ كوكتيل أخضر أو أحمر .. بالإضافة إلى العدد الكبير من الحاضرين من شتّى أنحاء الولايات المتّحدة

وفلسطين لهذا الاجتماع العائلي الموسّع شبه السنوي، حيث كان من السهل الانضمام لمجموعة محدّدة، وملازمتها، وخاصّة أن المجموعات الصغيرة كانت تُقسَم وفق المشروب الروحي أو المخدّر الذي يجمع أفرادها، ويحيلهم شرائطَ قماش في ساعة مبكرة من الليل ... فكانت هنالك مجموعة الويسكي، ومجموعة المرغريتا، ومجموعة الحشيش، ومجموعة البيرة، ومجموعة المخدّرات الأكثر بريقاً وجودة .. ومجموعة العاجزين والمرضى الذين لا يحتملون لا الكحول، وبالطبع، ولا المخدّرات، ومنهم سوسن التي لازمتْ جناحَها طيلة الرحلة هروباً من الشمس الحارقة وثرثرات العاقلين عن أيّام العزّ والبيت الكبير الذي استقبل اللاجئين من القرى المجاورة إبّان النكبة والخَدَم والحشم ممّنْ أصبحوا من صفوة القوم والمتحدّثين بالألسن بعد أن كانوا يمسكون بأطراف جلاليب أمّهاتهنّ متوسّلاتٍ زاحفاتٍ على الأرض، وهنّ تُجهّزنَ لأهل البيت العامر الأطايبَ التي لم تكنْ تتوفّر في كل بيت في تلك الفترات الغابرة الشحيحة، كما كانوا يعدّدون البيوت التي خَلَتْ من ساكنيها، وبيعَتْ للأغراب الوافدين على المدينة، والمصانع التي أصبحتْ مغاسلَ للسّيّارات، والحوانيت الأنيقة التي أصبحتْ مرتعاً للحشّاشين والبلطجية وغسيل الأموات، وعن رحلات بحيرة طبرية الأسبوعية إلى الشاطئ شبه الخاص بالعائلة قبل أن تحتلّها رائحة الخراء، ليحاصرَ الشاطئ غير المطوّب بأشرطة سلْكية شائكة، نَحَسَتْهُ، وجفّفت الماءَ فيه، ولَعَنَتْ أسماكَهُ، وأسكنت الديدان في أحشائها جاعلةً إيّاها تفتكُ بكلّ مَنْ يتجرّأ على أكلها حتّى لو تفحّمت من شدّة الشواء أو القلي ...

كان علينا أن نلتقي في اليوم قبل الأخير، حيث خطط يولا أن يتمّ في ذلك اليوم توزيع الحصص النقدية على كلّ واحد منّا بعد أن يُوقّع بالاستلام، على شكل شيك، يمكن صَرْفه من أيّ مكان بالعالم، وذلك

بعد أن قلّصْنا حصّة سوسن، كي لا تُبذّرها على أزواج، لن يأتوا، وطفلاتٍ غير موجودات وسط تمتمات وشتائم مسحورة من قِبَلها، لم نفهمها، ولم نبذلْ جهداً للقيام بذلك ...

في اليوم الأخير بالذات، تفكّكَت المجموعاتُ الكحوليةُ والمخدُراتية، فاستقلّتْ كل عائلة ميكروسكوبية قارباً صغيراً، حيث كان ما يشبه الواجب الوطني تفادياً للعار أن نُبحر إلى الصخرة المثقوبة العملاقة التي تفصل خليج سانت لوكا عن المحيط الهادئ ... جلسنا أنا ويولا وجانيت وسوسن في القارب ذاته وسط سكون ثقيل وسمج ... عند بلوغنا الصخرة الموعودة، قالت جانيت إن نفتالي الذي ينتظر على الشاطئ أضاعَ المنظرَ المذهلَ، وخاصّة حوض أسماك النيمو الملوّنة الساحرة، لولا أنه يعاني من دوار البحر، وجّه لي يولا نظرة كلبية مستهزئة بما قالتْه جانيت، يولا الذي كان سيُغادرنا مباشرة إلى نيويورك لمتابعة دراسة الدكتوراة في جامعة NYU في موضوع تمثيلات القضيب في الثقافة العربية الشعبوية، كنّا ننتظر جميعاً أن تصرخ سوسن .. خوفاً من الماء أو الأسماك أو أي شيء أو عَبَثاً بدون سبب ... ولكنها لم تفعل، بل كانت تنظر إلى بنت مكسيكية صغيرة، تقف أعلى الصخرة، وتترقّب أمراً ما ..كأنها تنتظر طائراً كبيراً، يحملها، ويُحلّق بها إلى هناك ...

أما أنا، فقد تأكّدتُ من كون الشيك الدولي مَحميّ في مُغلّف بلاستيكي مُحكَم، فقفزتُ في حوض النيمو، لأنتهكَ تناغم الألوان، اخترقتُ الثقب الكبير، ووَصَلْتُ إلى المحيط الهادئ، حيث كان بانتظاري قارب آخر، يلزم جدار الصخرة الفاصلة بيننا، يركبه شخص غريب.

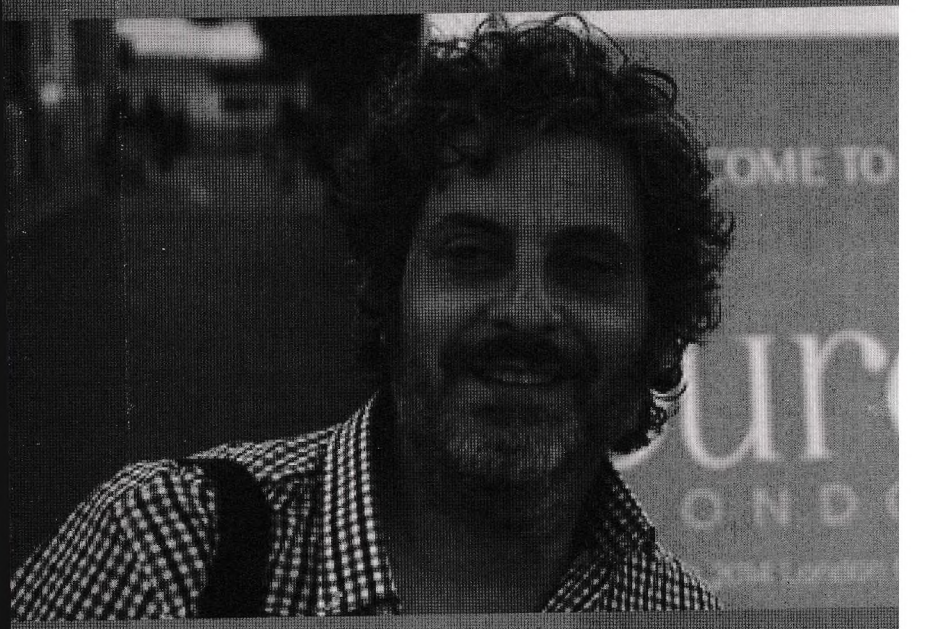

راجي بطحيش: كاتب وناقد وباحث في الشأن الثقافي من مواليد مدينة الناصرة - فلسطين عام ١٩٧٠، صدر له: (الظل والصدى) شعر - دار الحكيم - الناصرة ١٩٩٨، (العري وقصائد أخرى) دار الشروق – رام الله/عمان ٢٠٠٢، (حديقة للشتاء، ظل ربيع ضاع) شعر - دار الشروق – رام الله/عمان ٢٠٠٣، (بدل الضائع) قصص قصيرة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ٢٠٠٥، (غرفة في تل أبيب) قصص قصيرة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٧، (ملح كثير أرض أقل) قصص قصيرة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ٢٠٠٩، (بر- حيرة – بحر- بورتريه منثور) دار أزمنة للنشر – عمان ٢٠١١، (هنا كانت تلعب روزا) نصوص - دار راية للنشر والترجمة – حيفا ٢٠١٤، (أنطولوجيات جماعية بالعربية، العبرية، الإنجليزية والفرنسية).

المتوسط

هل شكل جنون سوسن المفاجئ صيف عام ١٩٨٢ مقدمة وإشارة للأفول الاقتصادي والاجتماعي والتاريخي للعائلة الممثلة بالجدة القاسية والأم الحالمة أم هو العكس؟ أي أن جنون سوسن كان نتيجة ومحصلة إلهية لهذا الأفول وتلك الانهيارات التي كانت تعصف بكل شيء بنعومة، تلك الانهيارات الحاضرة – الغائبة والبعيدة-القريبة في آن واحد.

يدمر ذلك الجنون، المنطق ووهم الكمال في حياة يولا وأخواته، ويتحول ذلك المنطق وسيناريوهات الحياة المرتبة بعناية فائقة للغاية إلى ملانكوليا مزمنة والكثير من الحرية المتعالية والمشرفة على قوانين الطبقة الوسطى وقيمها الصارمة.

يموت الأب ثم تموت الأم ليبقى يولا وأخواته مشبوكين سوية، ضمن أوراق ووثائق وأسرار ورغبات غير محكية، وكذا حاجيات وملابس وصور وأحذية وروائح ومفارش الأم الأنيقة وظلال الأب الباهتة. مشبوكين سوية ضمن إرث لا يرحم في عصر يطرده منه بصمت، حيث تبدو ملامح التعاسة مختلفة تماماً عن مكامن الحرية والانفلات الساكنة فيها.

الناصرة إذن، مدينة الزمن الفلسطيني الشائك المتبقي. مالذي سبق ماذا، أو بالأحرى، ما الذي شكل مقدمة ولعنة لما سيأتي؟

المتوسط